فلسفة
خفيفة ظريفة

عمر سفينج غول

مكتبة ٦٨٤

فلسفة خفيفة ظريفة

عمر سفينج غول

ملهمون للنشر والتوزيع 2021

مكتبة ٦٨٤
Telegram @t_pdf

هذا الكتاب

هل تبحث عن كتاب يتحدث عن الفلسفة تقرؤه باستمتاع دون مللٍ، ويتناول حياة الفلاسفة المثيرة، ومعلوماتٍ أساسيةً عن توجُّهاتِهم الفلسفية؟ أأنت مِمَّن يقولون: « لا بُدَّ أن تستندَ المعلومات الواردة في الكتاب إلى مصادرَ موثوقة، لكن أريدها أن تكون خفيفة ومسلِّية»؟ حسنًا، ها أنت ممسكٌ ذلك الكتابَ الذي تبحث عنه، ويسرد أصل الفلسفة وملخَّصًا عنها، فستقرأ المغامرة الفكرية التي خاضها الإنسان على مدار 2500 عام بطعم القصة القصيرة. يمكنك أن تصف هذا الكتاب بجملة: «تاريخ الفلسفة المختصر»؛ إذ إنه يعرّف الفلاسفة، ويتحدث عن حياتهم وِفْقَ الترتيب الزمنِيّ لمجيئهم إلى هذا العالم، كما يشرح أفكارهم الأساسية باختصار. يتميز الكتاب بلغة بسيطة، ومرحة، وممتعة للغاية، ويميل في بعض الأحيان إلى سرد الأقوال المأثورة. يمكنك قراءته في جلسة واحدة.

عمر سفينج جول

قرر أن يكون كاتبًا في سنوات دراسته الثانوية، وعُرِفَ بصفته «مؤلف الكتب الشبابية» لتأليفه كتبًا تخاطب القرّاء من الشباب. تضمّنت المجالات الأدبية أعمالًا من تجاربه، وقصصه.

عمل كمهندس لعشر سنوات في القطاع الحكومي. أسس عام 1996 مركز الثقافة العصرية. أصدر بالتعاون مع مجموعة من طلاب المرحلتين الثانوية والجامعية مجلة حملت اسم «بدون اسم». قدم برامج شبابية تليفزيونية تناولت قضايا الفن، والأدب، والفلسفة. ألقى الندوات، وشارك في العديد من الدراسات الثقافية التي تستهدف الشباب داخل تركيا، وخارجها. أسس دار كاربي دنيم عام 2005 ، وعمل مستشارًا بها لتسعة أعوام. ساهم في تنشئة الكتّاب الشباب. تُرجمت أعماله إلى اللغات الإنجليزية، والألمانية، والألبانية والبوسنية.

omersevincgul.com

facebook.com/omersevincgul

twitter.com/omersevincgul

instagram.com/sevincgulomer

حقيقة

يجب أن يتناول أيُّ عمل جديد إحدى هذه القضايا التالية:

1. اكتشاف شيءٍ لم يُكتشف في الماضي.
2. إتمام شيءٍ ناقص.
3. تفسير شيءٍ غير مفهوم.
4. تلخيص عملٍ طويلٍ للغاية.
5. ترتيب عملٍ غيرِ منظَّم.
6. جمع شتات عملٍ مفرّق.
7. تصحيح خطأ ما.

شمس الدين البابلي

القرن الحادي عشر الميلادي

اقرأني!

الإنسان هو أصل الكون، وشعوره وعقله، وهو الوحيد الذي يرغب بلا حدود ويستطيع الاختيار بحرية تامة. ومنذ أن صارت الروح ثمار شجرة الكائنات، وهو لا يعرف للفكر حدودًا، ويبحث باستمرارٍ عن سبب وجوده.

ولقد فتح كلّ مفكر الطريق أمام مَنْ جاء بعده، فقال: «أنا الحقيقة!»، فطغى ظلّ شخصيته، ومزاجه، وحياته، ومشاعره على فلسفته.

كلُّ واحدٍ منهم دعا الناس لاتِّباع طريقه، والمشيِ على أثره. وعندما تبنّى البعض أفكار هذا الفيلسوف، أو ذاك، تحوّل الفكر الفردي إلى جماعي و»الأنا» إلى «نحن».

إنني كتابٌ أحب الحديث بإيجاز، وسأحكي لك أصل الفلسفة، وملخصها وأساسها. سأعرّفك بالفلاسفة وفق تسلسلهم التاريخي، سأتحدث عن حياتهم، وسأسرد – باختصار – أفكارهم الأساسية.

لكن ثمّة شيءٌ مهمّ يميِّز أسلوبي، ألا وهو أنني لا أنسى أبدًا أن كلّ فيلسوف من أولئك الفلاسفة هو «إنسان» قبل أيّ شيء؛ إذ لم يكن أولئك الفانون أسماءَ مجرَّدة، أو آلاتِ فكر جامدة.

لقد ولدوا، كانوا أطفالًا صغارًا، ثم كبروا. أحبّوا الناس، وأحبهم الناس، فرحوا حينًا، وتألّموا حينًا، وفي النهاية غادروا هذا العالم.

يمكنك أن تصفني بمصطلح: «تاريخ مختصر للفلسفة»، فأنا أسرد عليك مغامرة الفكر التي خاضها الإنسان، ويعود تاريخها إلى ألفين وخمسمائة عام مضت في سياق حكاية.

يستطيع كلّ شغوف بالفلسفة أن يفهمني. أتمتع بأسلوب بسيط، وسَلِسٍ ومَرن؛ فأبدو كأنني أنقل أقوالًا مأثورة.

اقرأني، وكما ترى من اسمي، فأنا كتابٌ شيِّقٌ، وثِقْ بي؛ لأنني أستند إلى مصادرَ موثوقةٍ.

الفلسفة والفيلسوف

ما هي الفلسفة؟ هي الأفكار المنتظمة المقدمة في قضايا مثل الوجود، والكون والحياة، والمعلومات، والجمال، والأخلاق.

إنها العلم الذي يجمع هذه الأفكار ويرتِّبها، هي البحث عن «الحكمة»، عن طريف التفكير والأفكار.

ظهر مصطلح الفلسفة بدمج كلمة «philo» التي تعني الحب مع كلمة «sophy» التي تعني الحكمة، وهو ما يعني «حب الحكمة».

وأما مصطلح الفيلسوف، فيعني «مُحِبّ الحكمة»، وقد أطلق على الحكماء. فيما يحمل مصطلح الحكمة معانِيَ مثل: الغاية، والسبب، والفائدة، والعلم والسر، والكلام المفيد، والمرتبة المناسبة لقوَّة العقل، والتناسب بين القول والفعل.

إن الحكمة هي السِّرّ الكامن وراء ما هو ظاهر، وهي الكلمة الموجزة التي تصف الأخلاق الجميلة، وهي السبب الذي يؤدِّي إلى ظهور النتيجة، وهي الغرض الذي يقود إلى تحقُّق فعلٍ ما، ويطلق وصف «الحكيم» على الشخص صاحب الحكمة.

ماذا كان موجودًا قبل الحكمة ؟

كان قبل الفلسفة يوجد « علم الميثولوجيا»، وهو علمٌ يتناول الخرافات والأساطير. ويطلق هذا المصطلح على الأساطير التي يتناولها هذا العلم. ويُستخدم هذا المصطلح على وجه الخصوص، لوصف الأساطير الخاصة بالحضارتين اليونانية، واللَّاتينية.

وتعدُّ «الميثولوجيا» أسطورةً من جهة، ومن جهة أخرى دينًا مختلقًا. يوجد في هذا العالم آلهة، وأنصاف آلهة يخوضون فيما بينهم الحروب، ويعقدون السلام. كما أنهم على اتصال بالبشر. ولقد نُسِبَ كتاب علم الأساطير الصفات المنسوبة للبشر لهؤلاء الآلهة الخياليين.

تكون الكلمة العليا في «مرحلة الميثولوجيا» من نصيب الشعراء الذين صنعوا عالمًا من الخيال، وحلمًا للإنسانية. إنه عالمٌ من الحكايات المنسوجة من الخرافات والأوهام، ولعبة خيال ضخمة ملفوفة بقطعة قماش رقيقة من الجماليات.

وفي هذه المرحلة لا نرى أحدًا يجتهد؛ ليبحث عن الحقيقة، فما يكتبه المؤلفون هو عبارة عن تصوير العالم الظاهر.

الحكماء السبعة

يمكن الحديث عن بعض الحكماء في الفترة الفاصلة بين» الميثولوجيا»، والفلسفة، حيث إن أشهر أولئك الحكماء هم: هسيودوس، فيريسيديس، سولون، كليوبولوس، خيلون، بيرياندر. وهناك أقوالٌ حكيمةٌ قالها أولئك الحكماء لا تزال موجودة إلى اليوم:

سولون: « ثِقْ بنُبْلِ من أمامك أكثر من قَسَمه».

هسيودوس: « الفضيلة بعيدة للغاية، والطريق الموصّل إليها طويل، وعموديٌّ، وشاقٌّ، ولا يمكن صعود هذا التلّ دون سَكْبِ الكثير من العَرَق».

خيلون: « اعرف نفسك!»

بياس: « فكّر فيما تفعل، استمع كثيرًا، تكلّم عند الحاجة «.

بيرياندر: « فليكن طعامك طازجًا، وقوانينك قديمة».

هسيودوس: « من يعدّ السوء للآخرين، يكون قد أعدّ السوء لنفسه».

سولون: « لا تُكثر من شيء».

لا أريد أن يعرفوا لقبري طريقًا

يصادف وجود بعض السِّمات الغريبة للحكماء، والفلاسفة، والمفكرين. ويُعَدُّ بيرياندر نموذجًا تقليديًّا لهذا الأمر.

لم يكن بيرياندر يريد أن يعرف أحدٌ مكان قبره، فاتفق مع رجلين أخبرهما قائلًا: « اصعدا إلى التلّ في منتصف الليل، ستجدا هناك رجلًا يجلس، وظهره باتجاهكما، اقتلاه فورًا، وادفنا جثته، ثم واصلا السير في طريقكما بشكل مستقيم»!

ثم اتفق مع رجلين آخرين قائلًا لهما: «ستريان رجلين في تلك الساعة فوق ذلك التلّ، اقتلاهما فورًا، وادفنا جثتيهما، ثم واصلا السير في طريقكما»!

كان القتيل الأول سيكون هو نفسه، وأما القتيلان التاليان، فهما قاتلاه. وهكذا ما كان سيبقى أحدٌ يعرف طريق قبره.

ملاحظة أخرى: قتل بيرياندر زوجته ضربًا!

زرادشت

لا يعرف أحدٌ على وجه الدِّقَّة متى عاش، لكن يعتقد أنه عاش قبل سبعة قرون من الميلاد. يستند الجزء الأكبر ممَّا قيل حول حياته على أساطير. هو مؤسِّس دينٍ محليٍّ نصف فلسفي. حاول نشر دينه في مدن تركستان. وكانت أفكاره وآراؤه قد تسببت في ردود أفعال مختلفة في البداية، لكن سرعان ما انتشرت بمرور الوقت.

إنه يشرح مفهومه حول الدين، والكون في كتابين يطلق عليهما اسم «زند» و»أوستا». يعرف دينه باسم «المجوسية»، وهو دين به إلهان: «يزدان» هو إله الخير، و»أهرمن» هو إله الشر. يشهد الكون دائمًا صراعًا بين الخير والشَّرِّ. كلّ أنواع الشر يكون «أهرمن» هو السبب بها، وإذا نظرنا إلى مهامِّه، سنجد أن «أهرمن» هذا هو الشيطان حسب تعريف الديانات السماوية.

ملاحظة صغيرة: كان مصطلح « زِنديق» الوارد في ثقافة الدين الإسلامي يستخدم في العصور القديمة بمعنى « الشخص المؤمن بكتابِ زِند»، وبمرور الوقت أصبح مكافئًا لمعاني «الكافر/ غير المؤمن».

ثمّة ملاحظة أصغر: كان نيتشه من أولئك الذين يُعَدُّون زردشت مقرَّبًا منهم. وكان قد جعله يسرد أفكاره في أحد كتبه، لدرجة أنه وصفه بقوله:

« إنه بطلي!»

بوذا

(٥٦٠ – ٤٨٠ قبل الميلاد)

مؤسس البوذية:

اسمه الحقيقي هو «جواتاما أو ساكياموني». كما يذكر باسم « سدهارتا». رجل أسطوري. أما عن المعلومات المتعلقة بحياته، فمشكوكٌ فيها.

يقول البعض إنه كان رسولًا، فيما يقول البعض الآخر إنه كان فيلسوفًا. سبقه الكثير من البوذات، بطبيعة الحال إذا ما اعتبرنا أن كلمة «بوذا» تعتبر اسمًا.

كان والده أميرًا، وقد ترك بوذا قصر والده بعدما استغرق في أفكاره العميقة حول الحياة والموت.

طاف البلاد كلها؛ لينشر أفكاره، ومات في سِنِّ الثمانين.

يرى بوذا أن كلَّ ما في الكون ينشأ أوَّلًا، ويتطوَّر، ثم يتراجع، ويفنى، وبعدها يولد من جديد.

كل إنسان مسؤول عن أفعاله، حيث تنتقل الروح من جسدٍ إلى آخرَ؛ كي تنضج، وتستمر هذه الهجرة الضرورية حتى يصل إلى «النيرفانا»، وهو مصطلح يعبر عن الحالة الروحية التي يصل إليها الإنسان بعدما يتخلص من «الأنا»، وينجو بنفسه من كلِّ أنواع الرغبات، والأحاسيس، والعواطف.

يوجد العديد من الآلهة في هذا الدين، وهم يعيشون، ثم يموتون، ثم يَحْيَوْن من جديد؛ ليتولّوْا مهامّهم مُجَدّدًا.

الكبائر عشر: الكفر، القتل، الزِّنَى، السرقة، الكذب، النميمة، السَّبُّ، الثرثرة، الحسد، الحقد.

ردَّ بوذا كالتالي على سؤال «من الحكيم؟»:
«الحكيم هو مَنْ يعلم أنَّ الرِّضا لا يهب الإنسان سوى متعة قصيرة، لكنه يكون سببًا في إصابته بالألم».

كونفوشيوس

(٥٥١ – ٤٧٩ قبل الميلاد)

هو فيلسوفٌ صينِيٌّ، اسمه الصيني هو Kung. يطلقون عليه اسم «الأستاذ Kung».

تُوُفِّيَ والدُهُ، وهو لا يزال في الثالثة من عمره، فربَّاه كلٌّ مِنْ والدته وجده.

كان شابًّا ذكِيًّا، فبدأ يلقي على طلبته منذ سِنِّ العشرين دروسًا في الأخلاق، حيث علمهم أسرار قيادة الدولة، ودقائقها.

تعتبر الصين دولة مترامية الأطراف، وحينها لم يكن هناك طائرات، أو قطارات أو حافلات، فلا بُدَّ من أن يكون قد أرهق وتعب كثيرًا. عاد في النهاية إلى بيته الذي لم يجلس فيه دون أن يفعل شيئًا، فألَّفَ أعمالًا أدبِيَّة. وعلى سبيل المثال دوَّن تاريخ ولاية لو.

جُمِعَتْ كتاباتُهُ الخاصة بالمحاضرات، والرحلات بعد موته. عَدَّتْه الأجيال التي جاءت بعده المثل الأعلى للأمَّة الصينية، ودرَّسوا أعماله في المدارس.

كان يوصي بعيش حياة تتناسب مع البيئة، كان يقول: « لكي يعيشَ البشرُ والمجتمع في سلام وطمأنينة، يجب أن يطيعَ الابنُ أباه وأمه، والشاب العجوز، والمرأة زوجها، والمواطن الحكومة».

تناول طيلة حياته ركيزتين أساسِيّتَيْن: Jen و Jen..Yi تعني الصداقة، Yi تعني العدل. ثمَّة كلماتٌ مختصرةٌ قالها، ووصلت إلى يومنا هذا.

كان يقول: « لا تفعل لأحدهم شيئًا لا تريده أن يفعله لك»، كما اشتهر بتضرُّعه قائلًا: « إلهي، هب لي بيتًا مليئًا بالكتب، والأزهار!».

حان الدور على الفلسفة

كان علم الأساطير دربًا من الخيال، وكان الحكماء هم عناصر الفترة الانتقالية. والآن حان الدور على الفلسفة التي كان مهدها الحضارة الإغريقية القديمة.

حسنًا، ألم تكن هناك فلسفة قبل ذلك؟ هل كانت مساحة الفكر محصورة على الغرب؟ بالطبع لا! أيمكن القول إن سكان الشرق لم يكونوا يطرحون الأسئلة ولا يفكرون أبدًا؟ كان هناك فلسفة كذلك لدى الحضارات الكبرى في بلاد مثل الصين، والهند، وإيران، ومصر.

لا شكَّ في أن أولئك أيضًا كانوا يسألون، ويبحثون، ويفكرون، وهو ما تبرهن عليه العديد من العبارات الحكيمة التي وصلتنا.

يرى مؤرخو الفلسفة الغربية أن أشكال الفلسفة التي كانت موجودة لدى الحضارات الأخرى كانت مختلطة بالدين، فلم يتجسَّد مفهومُ البحث عن الحكمة، أو الحقيقة استنادًا إلى العقل فقط سوى لدى الحضارة الإغريقية القديمة. وأما أحد أسباب التظاهر، وكأنه لم تكن هناك فلسفة في بلاد الشرق هي انتساب كتاب تاريخ الفلسفة إلى الحضارة الغربية. فهم مَنْ يكتبون ذلك التاريخ، وهم مَنْ يستفيدون من كتابته.

طاليس

(٦٢٥ – ٥٤٧ قبل الميلاد)

طاليس هو فيلسوف إغريقي، كما كان رياضيًّا، ومعروفًا بمساهماته في مجال علم الهندسة، يُعرف بأنه « الفيلسوف الأول». ينتسب إلى المدرسة الأيونية.

كانت الفلسفة في ذلك العصر تتضمَّن كذلك العلم، وهو ما استمرَّ لقرون، ثم انفصل العلم بعد ذلك عن الفلسفة، وأصبح مستقِلًّا، وكان أحد الأسئلة الأساسية التي بحث المفكرون في الفلسفة اليونانية القديمة عن إجابة له هو كالتالي: ما الذي كان موجودًا في البداية، وانبثقت منه كلُّ المخلوقات؟

يقول طاليس: إن كلَّ شيءٍ حَيّ. يُعَدُّ أن الماء هو المادة الأساسية لكلِّ المخلوقات، أي أن الماء هو «Arche» (مصدر) كلّ شيءٍ. وهو مصطلح فُسِّرَ من خلال كلمات مثل المنشأ، المصدر، الأساس، المبدأ، الجوهر.

لم تخلق هذه الجواهر لاحقًا، ولا يمكن التخلص منها أبدًا، فهي كانت وستكون موجودة دائمًا.

يرى طاليس أن الأرض مستوية تمامًا، وتسبح في محيط لا نهاية له. يأتي كلُّ شيءٍ من الماء، ثم يعود ليتحوَّل إلى ماء مُجَدَّدًا لا بُدَّ أن يكون.

وكونه عاش في مدينة ساحلية مثَّل له الحافزَ الأكبرَ لاعتباره الماء هو بداية كلّ شيءٍ ونهايته، فلو كان قد عاش في الصحراء لكان قد قال «الرمل» على أيّة حال!

لا يزال الوقت مبكِّرًا:

كانت والدته تريد تزويجه، لكنْ في كلِّ مرة كان ردُّه واحدًا: «لا يزال الوقت مبكِّرًا يا أمي!»، فمرت السنون، وعندما كانت أمُّه مُصِرَّةً على تزويجه، أجابها قائلًا: « لقد فات الأوان يا أمي!».

أناكسيماندر

(٦١١ – ٥٤٥ قبل الميلاد)

أحد الفلاسفة الإغريق، وكان ينتمي هو الآخر إلى المدرسة الأيونية. وهو من بين الذين بحثوا عن سؤال: « ما المادة الأساسية للكون؟».

كان طاليس يقول الماء، وأما أناكسيماندر، فقد تحدّث عن كيانٍ أطلق عليه اسم: « ما لا حدودَ له». وكان يَعُدُّ هذا الكيان هو الخالق الذي يمثل إنتاجية لا حدودَ ولا نهايةَ لها، وعليه فيجب أن يكون هذا الكيان كذلك بلا حدود، أو نهاية.

إنَّ الماء مادة ملموسة وذات نهاية، ولهذا ما كانت المادَّة الأساسية، وهذه الخطوة تعدُّ خطوة انتقالية من الملموس إلى غير الملموس، ولو أنها لم تكن خطوة كبيرة!

أنكسيمانس

(٥٨٥ – ٥٢٥ قبل الميلاد)

كان هو الآخر فيلسوفًا إغريقيًّا، وعندما طُرح عليه سؤال: « ما المادة الأساسية في الكون؟»، أجاب بقوله: « وماذا سيكون غير الهواء؟»، وعلى ما يبدو أن الفلاسفة الإغريق الأوائل تشاركوا فيما بينهم العناصر الأربعة المعروفة، ألا وهي: التربة، والهواء، والماء، والنار.

أما عن الجانب الذي ميَّز هذا الفيلسوف، فقد كان قوله: « الروح موجودة». فماذا كانت هذه الروح التي عرّفها؟ كانت شيئًا كالنَّفَس والنفخة، هي كيان حَيٌّ، ومؤثّر، ويحول الكائن بالكلية، لكنه كان يعود، ويرجع ليبني فكرته على الهواء، فالهواء يتكثّف في درجات مختلفة، لتتكون منه كائنات متعددة وما إلى ذلك.

ما علينا.

فيثاغورث

(٥٨٥ – ٥٠٠ قبل الميلاد)

وُلِدَ فيثاغورث في جزيرة ساموس، وقد شغل تفكيره هو الآخر بمسألة: « المادة الأساسية، الكيان الأساسي، المصدر»، لكن كان عليه أن يقدِّمَ شيئًا مختلفًا هذه المرة، فقال مُصِرًّا: « الأعداد»، حيث تتكون الأشياء وِفْقَ كمّيات الأعداد. كما أن لهذه الأعداد جانبًا مادِّيًّا. وكانت إحدى سمات فيثاغورث أنه كان شيخ طريقة كان لها قواعد غريبة، فعلى سبيل المثال حظر على مريديه أكل الفاصوليا، وكان يقول لطلبته «لا تنسوا أنه يمكن إذابة الذهب بالنار والنساء بالذهب والرجال بالنساء».

كان شغوفًا بالرياضيات والموسيقى، وتوجد نظرية رياضية مسجّلة باسمه. وحاول شرح ماهية الكون من خلال الرياضيات.

من إحدى أبرز سماته أنه كان يؤمن بانتقال الأرواح وهجرتها، وقد كشف عن فكرة «العودة اللَّانهائية»؛ إذ كانت فكرة تقوم على أن هناك عملياتٍ دورية تجري في الكون، فما هو موجود اليوم كان موجودًا في السابق لآلاف المرات، كما أنه سيكون موجودًا في المستقبل لعدد لا نهائيٍّ من المرات.

لا تحزن معتقدًا أنك ستنفى بعد الموت، فذرات بدنك لن تفنى أبدًا؛ إذ إن الكون يفنى ويرجع، يفنى ويرجع، يفنى ويرجع، يفنى. كفى!

كزينوفانيس

(٥٦٩ – ٤٧٧ قبل الميلاد)

يُعَدُّ « كزينوفانيس» هو من أدخل فكرة «الإله الواحد» في الفكر الفلسفي. فالوجود واحد أحد، ويحكمه إله واحد منزَّه عن كلّ نقص، يرى ويسمع ويدرك ويعلم، لا يشبه الإنسان، لا يتحرَّك ولا يتجزأ، يدير كلّ شيء بفكره. لكن « كزينوفانيس» كان يرى أن الكون، والإلهَ شيءٌ واحدٌ، أي قضية وحدة الوجود.

يُعَدُّ « كزينوفانيس» أحد الذين قطعوا شوطًا طويلًا في هذا الطريق، لكنه لم يصل إلى نهايته، لكنه على أية حال رجل عهد الانقطاع.

هرقليطس

(٥٤٠ – ٤٨٠ قبل الميلاد)

كان « هرقليطس» من مدينة إفسوس الإغريقية الشهيرة. وكان كلُّ الفلاسفة الذين سبقوه قد بحثوا عن أصل لا يتغيّر، ذلك الأصل الخاص بكيان الوجود، فمنهم من قال التربة، ومنهم من قال الماء، ومن قال الهواء، فأما «هرقليطس»، فقال النار.

كان «هرقليطس» يرى أنَّ كلَّ شيءٍ في حالة تدفق، وله عبارة شهيرة قال فيها: « كلُّ شيء يتدفّق، فلا تستطيع الاستحمام في النهر نفسه مرتين». لا ينتهي الأمر عند هذا الحَدّ؛ إذ يرى أن هناك صراعًا في كلّ مكان، ونتيجة هذا الصراع الذي يحدث بين القوى المتقاتلة تظهر كيانات جديدة ينظم شؤونها «Logos»، أي العقل الكوني.

«هرقليطس» هو أول ما طرح قضية «الجدل»، فماذا تعني هذه القضية؟ هي فنّ النقاش، حيث إنها طريقة تفكير، وهي طريقة استدلالية للوصول إلى الحقائق مرورًا بالتناقضات، وبعد ذلك تخطِّيها. وتستند هذه الطريقة إلى أسلوب طرح فكرة ما، ثمّ ظهور فكرة معارضة لها، وبعدها نظهر ثالثة فكرة جديدة من تضاد، أو توافق هاتين الفكرتين، وتتألّف من ثلاث مراحل: الفكرة، الفكرة المضادة، الفكرة المجمّعة، وتعدّ الفكرة المجمّعة – في الوقت نفسه – فكرة النقاش التالي. وهكذا تستمر السلسلة.

بارمينيدس

(٥٤٠ – ٤٨٠ قبل الميلاد)

مؤسس « مدرسة الإيلية». عَبَّرَ عن أفكاره بالشعر، إنه لا يثق بالمشاعر، حيث يقول: « يمكن الوصول للحقيقة بالتفكير».

حاول، كما فعل مَنْ سبقوه توضيح حقيقة الوجود. فكان يطلق حكمًا يقول فيه: « الوجود موجود، لكن العدم ليس موجودًا»، فهم الظاهر من الوجود، هذا ما نعتقده، وما نشعر به – في الواقع – ليس كائنات حقيقية، والعالم الذي نعيش فيه عبارة عن صورة، وعندما ننظر من الخارج نرى تحوُّلات وكياناتٍ، لكن ما هذا إلَّا وهم، فحواسنا تخدعنا، وما نراه هو سراب.

الحقيقة واحدة ودائمة، والوجود واحد، كان وسيظلّ موجودًا دائمًا. وهو لا يشبه شيئًا، بل إنه نفسه، كما أنه غير قابل للتجزئة. ليس له حدود، خارج نطاق الزمن، ثابت ولا يتحرك.

زينون الإيلي

(٤٩٠ – ٤٣٠ قبل الميلاد)

هناك شخصان يحملان اسم زينون، أحدهما قبرصي والآخر إيلي، ونحن هنا نتحدث عن هذا الأخير. يُعَدُّ من تلاميذ «بارمينيدس» المخلصين.

يرى أن كلّ ما نراه في الأرض والسماء – في الواقع – غير موجود، وأما نحن فنعتبرها، وكأنها موجودة، حواسُّنا تخدعنا، وأمّا الشيء الوحيد الموجود فهو ما قاله الأستاذ « بارمينيدس»:

« الواحد!»، أي الكيان « الوحيد»، ولا يمكن إدراك هذا الكيان بالحواس. يُعَدُّ زينون أستاذَ منطقٍ من الطراز الرفيع. وهو يقوم بألعابٍ منطقيّةٍ مثيرةٍ، كما يحسن استخدام الطريقة الجَدَلِيّة، وكانت الأدِلّة التي ساقها للبرهنة على صحة آرائه قد حيَّرت الفلاسفة لقرون.

كانوا يطلقون عليه لقب « البهلوان» بسبب التواء أفكاره. كان يخرس أفواه معارضيه بطريقة « الاختزال في السخافات».

إيمبيدوكليس

(٤٩٢ - ٤٣٢ قبل الميلاد)

كان صِقِلِّيًا، وحاول التوفيق بين بعض الأفكار الفلسفية التي طُرِحَتْ في السابق، وهو يرى أن الكون به ٤ مواد أساسية: التربة، الماء، الهواء، النار، وباختلاطها جميعًا تظهر الكائنات، وهي عناصرُ موجودةٌ منذ الأزل.

إذًا، مَنْ يوحّد هذه العناصر، ويفصل بينها؟ قوَّتان تسمَّيان الحُبَّ والكراهية، الأول يوحِّد، والثانية تفصل، فالحبُّ جاذبٌ، أمّا الكراهية، فمُنَفِّرَة.

وبهذه الطريقة تنفصل بعض المخلوقات لتفنى، فيما يتَّحد البعض الآخر ليبقى.. إلخ.

يبدو أن والده كان رومانْسِيًّا بما فيه الكفاية.

يُرْوَى أنه أعلن نفسه إلهًا في شيخوخته! فقالوا له: «برهن على ذلك»، فألقى نفسه في فوهة بركان « جبل إتنا»، فكانت هذه نهايته.

قال: « الحركة حقيقة، لكن ليس هناك شيءٌ اسمه الوجود»، كما كان ممّا قاله: « الحب سينتصر على الكراهية لا محالة».

ديموقريطوس

(٤٦٠ – ٣٧٠ قبل الميلاد)

أحد أشهر مَنْ مثَّلوا النظرية المعروفة باسم «الذرية». فكلمة الذرة Atom تعني في اللغة اليونانية: « الشيء غير القابل للتقسيم».

ذرات « ديموقريطوس» تحتل مكانًا في الفضاء، لكنها غير قابلة للتقسيم. لا تشبه بعضها بعضًا، كما أن خصائصها لا تتغير أبدًا. أما التنوّع الموجود في الكون، فهو بسبب تجمع الذرات مع بعضها بعضًا بشكل مختلف.

لا يمكن تفسير حدوث الأحداث بالصدف، فكلُّ شيءٍ يحدث وِفْقَ مجموعة من القوانين المحدَّدة. كما أن المخلوقات تظهر بشكلٍ إجبارِيٍّ.

خُلِقَتِ الروحُ من الذرة، وإذا مات الإنسان هذا يعني أنه صار غبارًا.

باختصار، نحن أمام فيلسوف مادِّيٍّ. إحدى مقولاته الشهيرة: « الكلمة هي ظِلُّ الفعل»، كما قال بعض العبارات حول السعادة، إحداها تقول: « الروح الهادئة تكون سعيدة؛ ولهذا وجود الحكمة ضرورة». هيّا لنصبح حكماء!

أناكساغوراس

(٥٠٠ – ٤٢٨ قبل الميلاد)

هو مَنْ وضع فكرة «نيوس»، فما هذه الفكرة؟ العقل الأبدي الذي لا قَبْلَ، ولا بَعْدَ له. لا يشبه الكائنات المرئية، يفعل كلّ شيءٍ، وينظِّمه ويدمّره، كما أنه هو الذي يحدِّد الهدف من وجود الكون.

لا يَعَدُّ نيوس مادة على النحو المعلوم، لكنه – في الوقت نفسه – ليس شيئًا معنويًّا؛ ولهذا يمكن تعريفه على أنه مادة رقيقة ونقية. يشعر المرء برغبة في أن يقول: «جميل»، لكن لا داعِيَ لتشويش العقول.

إذًا، كيف يخلق الكائنات؟ إنّ لَدَيْه بذورًا صغيرة خالدة، يستخدمها في الخلق، يطلقها في الكون كالذي يطلق بذور الشعير.

السفسطائيون

بروتاجوراس، جورجياس، بروديكوس، أنتيفون، بولاس، ثراسيماخوس، كاليكلس، والكثير من الأسماء الأخرى.

هؤلاء هم أساتذة السفسطة، أشهرهم بروتاجوراس. ليس لدينا وقت لنخصِّصَه لجميعهم. فتعالوا نلقِ نظرة على فلسفتهم.

السفسطة هي طريقة الفلاسفة «الشكَّاكين» الذين لا يصلون إلى حكمٍ إيجابِيٍّ أو سلبِيٍّ، ويطلق على هؤلاء الفلاسفة لقب: «السفسطائيون»، وهي فلسفة الفلاسفة الشكَّاكين الذين لا يعرفون الحقيقة، ولا يبحثون عنها لعدم وجود أمل لديهم بالوصول إليها، فهم يقضون أيامهم منشغلين بالشعر والموسيقى والألعاب الكلامية.

يقولون: « ما أراه صحيحًا ربما تراه خاطئًا»، كما يقولون: « لا يمكن معرفة الحقيقة، فما تؤمن به يكون هو حقيقتك»! وكذلك: « الأهمُّ هو أن تقنع من أمامك»، فهناك الكثير من ألعاب الفلسفة والمنطق.

هل الأشياء موجودة؟ لا أعلم، لا يمكن أن أقول موجودة، كما لا يمكن أن أقول غير موجودة. ما الشيءُ الجيِّد؟ هو الشيء المفيد. إلخ.

كان أولئك السفسطائيون قد بذروا بذور نظريات فلسفية من قبيل: النسبية والتشكيك، والمنفعة، والواقعية، واللَّاأدرية.

المنطق السفسطائي

يأتي أحد الطلاب السفسطائيين الأذكياء إلى أستاذه مخاطبًا إيَّاه بقوله:

« أريد أن أتتلمذ على يديك لأكون محاميًا، لكن ليس لَدَيّ مالٌ أعطيك إيَّاه. فإذا قبلت أن تعطيني الدروس، سأعطيك إيصالًا لأدفعَ لك ديني بالمال الذي أربحه من أول دعوى أكسبها مستقبلًا».

فيقول الأستاذ: «حسنًا، لتدفعَ لي أجري من أول دعوى تكسبها»، فيوقِّعان إيصالًا، ويبدأ الأستاذ يلقي الدروس على التلميذ الذين يصبح محاميًا، لكنه لا يسدد دينه بعدما ينجز الكثير من الأعمال، فيرفع الأستاذ دعوى على تلميذه، وما أن تعقد الجلسة ينهض الأستاذ ليقول:

« لا حاجةَ لجلسة هذه الدعوى، فعلى هيئة المحكمة إصدار الحكم فورًا، ذلك أن هناك دعوى قضائية بيني، وبين تلميذي الذي كان سيسدِّد دَيْنَه من أول دعوى يربحها، لكنه يقول إنه لم يربح أية دعوى حتى اليوم. أمر جيد، لكننا اليوم في المحكمة، وهذه دعوى قضائية، وهو ملزم بالسداد لو ربحها؛ لأنه ربح، ولو خسرها لأنه خسر. إذًا، لا داعِيَ لهذه الجلسة!»

فهل هناك ردٌّ على هذا الكلام؟

ينهض التلميذ ليقول:

« نعم، تلقيت الدروس على يد أستاذي الذي تتركز كلُّ مهاراته على ممارسة ألعاب المنطق، وأرى أنه ليس هناك داعٍ لمواصلة هذه الجلسة! ذلك أنني لو ربحتها، فلن أعطيه المال؛ لأنني سأتلقى حكمًا بعدم السداد، ولو خسرتها، فإنني لن أسدد لفشلي في كسب الدعوى، أي أنني لن أدفع له المال في كلتا الحالتين، كما ينصُّ الاتفاق بيننا!».

سقراط

(٤٧٠ – ٤٠٠ قبل الميلاد)

فيلسوفٌ إغريقِيٌّ شهيرٌ ترتكز فلسفته على عنصر الإنسان. وهو مفكر في منتهى الذكاء، وهو الذي أدخل فكرة الطريقة على الفلسفة، حيث يستخدم طريقة الحوار.

في المرحلة الأولى من مراحل الحوار يطهِّر ذهنَ مخاطبه عن طريق طرح الأسئلة، وهو بهذه الطريقة يفسح المجال أمام استقبال أفكاره. وفي المرحلة الثانية يطرح المزيد من الأسئلة عن طريق التظاهر، وكأنه لا يعلم. وهكذا يجعل مَنْ يخاطبه يصل إلى الحقيقة بنفسه. يطلقون على هذه الطريقة: «طريقة الطوبولوجيا».

إنه يحاول أن يجعل الناس يفكرون في كلِّ مناسبة، وعندما يريد الحديث مع أحدهم، يمدُّ عصاه فورًا، ويقطع طريقه، ويسأله: «مَنْ أنت؟ لماذا تعيش؟ ما الغرض من حياتك؟»

يقول: « الحياة التي لا يطرح حولها صاحبها الأسئلة لا تستحقُّ أن يحياها». كما أنه متواضع الشخصية. وإحدى مقولاته المشهورة: « إنَّ فرقي هو تكويني الذي يعرف ما لا أعرفه».

لم يترك سقراط كتابًا، وأمَّا إرثُهُ لعالم الفلسفة، فكان حياة صالحة، وتلميذًا فيلسوفًا ذكِيًّا مثل أفلاطون، ودفاعه في المحكمة.

كانت حياته في غاية البؤس. فقد حكموا عليه بالإعدام بتهمة: « التسبُّب في انحراف الشباب»، وقد أعدموه بسَقْيِهِ عصيرَ « الشوكران السَّامّ». وقال في نصِّ دفاعٍ خلال محاكمته بعض العبارات التي تجعل المرءَ يفكر: « أكشف النقاب عن شاهد لا يمكن تكذيبه من أجل إثبات صدق كلامي: فقري!»

كان في منتهى الهدوء عندما اقتادوه لتنفيذ حكم الإعدام، فقد قال لأحد تلامذته « كريتو! ندين للإله آسكليبيوس بِدَيْنٍ عبارة عن دِيك، سدِّد هذا الدَّيْنَ من فضلك!»

إذا ضحكت السماء...

كان سقراط يقول: « تزوّج، لو كانت زوجتك صالحة صِرْتَ سعيدًا، ولو كانت شريرة أصبحت فيلسوفًا»!

تزوَّجَ امرأة سيِّئةَ الطِّبَاع، فقال: « لو استطعت تحمُّل طباعها لاستطعت كذلك تحمُّل صعوبات الحياة».

لقد كانت امرأة سيِّئَةَ الطبع حقًّا، فما كانت تتورَّع عن توبيخه أمام تلامذته، أما سقراط، فكانَ يتحمَّل كلّ تصرّفاتها.

كانت زوجته تتحدَّث في أحد الأيام بلا جدوى في وقت كان سقراط منشغلًا بالحديث مع أحد تلامذته، فلم يُجِبْهَا، فبدأت هذه المرة بالصِّيَاح، وعندما عجزت عن تلقِّي أيّ رَدٍّ من زوجها، أحضرت دلوًا من الماء، وسكبته فوق رأس سقراط الذي التفت بهدوء إلى تلميذه قائلًا: « لقد أخبرتك، متى ضحكت السَّماء نزل المطر!»

لماذا تبكي؟

عندما قرأ عليه حكم الإعدام واقتادوه لتنفيذه، كانت زوجته تقف بجواره وهي تبكي، فسألها سقراط: «لماذا تبكين يا زوجتي؟»، فأجابته: « لأنهم سيعدمونك ظلمًا»، ليردّ عليها رَدًّا يليق به كفيلسوف: « أكان خيرًا لو أعدموني بوجه حقّ؟!».

المدارس السقراطية:

يُقتَل الأشخاص، لكنَّ أفكارَهم تظلّ باقيةً، فأفكار سقراط الذي أعْدِمَ ظلمًا واصلت الحياة من بعده. واصل الكثير من الفلاسفة، والمدارس الفلسفية المختلفة الدفاع عن أفكاره، حيث أسس تلميذه «أنتيستنيس» (المدرسة الكلبية الفلسفية)، وأما تلميذه الآخر «أريستبوس»، فقد أسس (المدرسة القورينية). الأمر نفسه ينطبق على مدرستي ميجارا وأليس ألتريا اللتين سارتا على درب أستاذهما.

أهمُّها أول اثنين، فقد عَدَّ أنصارُ (المدرسة الكلبية) الفضيلة أنها أسمى قيمة وحاولوا نشرها بين الناس. ويرون أن المهِمَّة الرئيسة للشخص الحكيم هي الوصول إلى السعادة عَبْرَ التخلُّص من الاحتياجات الحياتية المخادعة.

وأما فلاسفة (المدرسة القورينية)، فنَادَوْا بضرورة الحصول على « المتعة» للوصول إلى السعادة، لينشروا بذور فلسفة المتعة التي طورها لاحقًا «إبيقور».

ديوجانس

(٤١٣ – ٣٥٦ قبل الميلاد)

يُعَدُّ « ديوجانس» من فلاسفة (المدرسة الكلبية) الذين أطلِقَتْ عليهم هذه التسمية؛ بسبب معيشتهم في ظل الظروف القاسية مثل الكلب، فالمصطلح لا يتضمّن أية إهانة.

كان « ديوجانس» يعيش حياة المشردين، فمنع نفسه عن كلِّ نعم الدنيا، حيث كان يعيش داخل برميل. ويُرْوَى أن متاعه الوحيد في الدنيا كان وعاءً، وعندما رأى أحدهم يشرب الماء بيديه، تخلَّص من ذلك الوعاء.

كان يتجوَّل في وضح النهار حاملًا مصباحًا، وعندما كانوا يسألونه عن السبب، كان يجيب: «أبحث عن رجل»!

كان أحد الرجال العزَّاب المتزمتين، وكان لا يهنِّئ مَنْ يتزوجون، بل كان يهنئ من لا يتزوجون، ولديهم القدرة على ذلك، وفي أحد الأيام زاره بعض الشباب وسألوه: «متى نتزوج يا أستاذ؟»، فأجابهم: « لا زلتم شبابًا والوقت مبكرٌ، وإذا أصبحتم شيوخًا، فالوقت سيكون قد تأخّر كثيرًا».

زاره في أحد الأيام الحاكم المعروف آنذاك « الإسكندر الأكبر» الذي عندما رآه شعر بالأسى على حاله، فوقف أمام برميله، وخاطبه قائلًا: « اطلب ما تريد»، فكان جواب الفيلسوف: « لا أريد معروفًا سوى أن تزيل ظِلَّكَ من أمامي!».

أنا من سينسحب...

صادف ديوجانس الفقير ذات مرة غنيًّا متغطرسًا في شارع ضيّق للغاية ما كان أحدهما أن يستطيع العبور منه سوى بأن يقف الآخر، وينتظر على أحد جانبي الشارع. خاطب الغني الفيلسوف الذي احتقره قائلًا: « لا أنسحب من أمام شخص حقير مثلك!»، فتراجع ديوجانس فورًا، ووقف على جانب الطريق وهو يقول في هدوء شديد: « أنا من سينسحب!».

أفلاطون

(٤٢٧ – ٣٤٧ قبل الميلاد)

يُعَدُّ أفلاطون أذكى تلامذة سقراط، وهو ينحدر من عائلة نبيلة، واسمه الحقيقي « أرستوكليس»، أما اسم أفلاطون، الذي يعني «عريض المنكبين»، فقد أطْلِقَ عليه في وقتٍ لاحق. وإنه من قال: «الفلسفة هي أسْمَى فَنّ».

أفلاطون هو مؤسس المدرسة التي حملت اسم «الأكاديمية» التي ظلت صامدة لتسعة قرون، وتخرَّج فيها العديد من الفلاسفة الذين يأتي في طليعتهم « أرسطو».

يعرف أفلاطون بأنه « أبو المثالية». وتُعَدُّ « نظرية المثُل» التي وضعها مشهورة للغاية؛ إذ كان لها تأثيرٌ كبيرٌ في تاريخ الفلسفة، وهي نقطة الانطلاق بالنسبة لكلِّ الفلاسفة المثاليين الذين أَتَوْا بعده.

يؤمن أفلاطون بالإله، والروح، وخلودها، ويستخدم في مؤلفاته أسلوب الحوار. وعادة ما يطرح سقراط الأسئلة، ليردّ عليه مخاطَبِهِ، وأما في الأعمال التي ألفها خلال فترة نضجه، فهو يعرف طرق الوصول إلى عالم المثُل عن طريق الحب.

كانت له تفسيرات حول هدف الوصول إلى « فكرة الخير»، وقد لاقت ترحيبًا كبيرًا من جانب المتصوّفين، وقد طرح « أفلوطين» لاحقًا هذه الأفكار من جديد لتكون أساسَ المدرسة الفلسفية التي عرفت باسم: « مدرسة الإسكندرية».

ويدافع أفلاطون عن الفكرة التي تقول: إن هناك حقيقة مستقلة عن عقل الإنسان. إن المادة ليست هي الحقيقة نفسها، بل هي انعكاس لها، حيث إنها عبارة عن اكتساب «Ide» شكلًا. وإن المخلوقات الظاهرة تتغيّر دائمًا، فتفسد، ثم تختفي، وأما الحقيقة الباقية فهي العالم غير المرئي.

هذه هي المثل العليا، فالكيانات الظاهرة هي انعكاسات لهذه المثُل.

مثال الكهف...

تخيَّل كهفًا داخله مجموعة من الأشخاص مكبلين بالسلاسل، ويجلسون وخلفهم الضوء، لا يستطيعون إلَّا النظر إلى الجدار الذي يشاهدون عليه بعض الظلال التي يعتقدون أنها حقيقية، بيد أنَّ الحقيقة في مكان ما في الخلف، فنحن في هذا العالم نعيش الحالة نفسها، فما نراه إنما هو ظلال للحقائق، أي المثُل العليا، الموجودة في عالم آخر.

وعلى سبيل المثال، فإن الأشخاص الذين نراهم هم ظلال «مثل الإنسان». وأما مفهوم «الإنسان»، فهو يتفوّق على الجميع، وهو موجودٌ في عالم آخر. فهذه المثل هي النماذج الأولى. وهي تتَّخذ أفضلَ الأشكال، ولا تتغير. فالمعرفة الحقيقية هي معرفة هذه المثل.

نعيش نحن البشر في عالم الظلال، ويستطيع الإنسان تخطِّي حدودَ عالم الظلال عن طريق المعرفة، وباستخدام عقله؛ ليقتربَ مِنْ عالم المثُل.

تتَّخِذُ الأفكار واقعيَّتها من فكرة «الخير» التي تعتبر كالشمس، فمثلما تجعل الشمس الكائنات المادِّيّة مرْئِيّة، فإن فكرة الخير هي كذلك تجعل الأفكار

الأخرى مَرْئِيّة. لا يمكن وضع تعريف لهذه الفكرة، لكن يمكن تعريفها بتجاربَ باطنية.

فما فكرة الخير هذه؟ الإله بالتأكيد! كان أفلاطون يطلق عليه اسم «ديميرج».

أرسطوطاليس

(٣٨٤ – ٣٢٢ قبل الميلاد)

اسمه المختصر هو «أرسطو»، فيلسوف إغريقي درّس لبعض الوقت للملك العظيم « الإسكندر الأكبر».

كان أحد أنجب، وأمهر تلامذة « الأكاديمية»، وألَّف في شبابه أعمالًا بأسلوب الحوار. لكن تلك الأعمال فُقِدَتْ، وليس بين أيدينا سوى أعماله التي ألَّفها خلال فترة نضجه.

يمكن تصنيفُ كُتُبِهِ في سِتِّ مجالات هي: المنطق، والفيزياء، والميتافيزيقا والأخلاق، والسياسية، والأدب. يُعَدُّ مؤسسَ المنطق الصُّورِيّ، ولقد أثر في مفكري العالم الغربي المسيحي، وكذلك استقى منه مفكّرو العالم الإسلامي

واستلهموا منه أفكارهم، كالفارابي، وابن سينا، وابن رشد، الذي قيل عنه إنه الشارح الأعظم لأرسطو.

كان « ديموقريطوس» يرى أن الذرة هي أساس كلّ شيءٍ، أما أفلاطون فكان يُعِدُّ الأفكار هي الحقائق، ويرى العالم المادِّيَّ على هيئة ظِلٍّ، غير أن أرسطو عارض الاثنين؛ إذ كان يرى أن الأفكار عبارة عن أسماء، وأما ما هو حقيقي، فهو أشكالها المرئية.

على سبيل المثال، عندما نقول: « إن هناك قطة»، فنحن لا نقصد أنها كيان مستقلّ عن سائر القطط، بل إن هناك قططًا ترى فقط بالعين. إنَّ الأساس في الكون هو الجواهر، فنحن ندرك الشكل بحواسّنا، والجوهر بعقولنا.

الكيانات متدرِّجة على شكل هرم في أعلاه يوجد الجوهر الذي لا يتحرّك لكنه يحرِّك. أي الإله.

له بعض العبارات المختصرة:

- « الأمل هو حِلْمُ المرء اليَقِظ».

- « فكِّرْ كالحكيم، وتكلم كالإنسان العادي».

- « الصالح بسيط، أما السَّيِّئُ فمُعَقّد».

العظماء الثلاثة

سقراط، أفلاطون، أرسطو، هم عماء الفلسفة القديمة.

هم أساس الفلسفة، وكانت تأثيراتهم عميقة، وطويلة الأجل. يمكن الربط بين كلِّ الفلسفة الغربية، وجميع الأنظمة الفلسفية الموجودة اليوم، وبين أحد هؤلاء الفلاسفة الثلاثة. يُعَدُّ سقراط هو أستاذ الطريقة، أما أفلاطون، فكبير المثالية، فيما يُعَدُّ أرسطو العقل، والمنطق، والمادة، والارتقاء إلى المعنى انطلاقًا من المادة.

في الوقت الذي ينتقل فيه أفلاطون من المعلّم إلى العمل، ينتقل أرسطو من العمل إلى المعلّم. ومقارنة بأرسطو، يُعَدُّ سقراط وأفلاطون معنويين أكثر.

يرى بعض مؤرِّخي الفلسفة أنه منذ عهد أولئك الثلاثة لم يشهد مجال الفلسفة أيّ إبداعٍ جديد، فالبذور المنثورة في عهدهم أينعت وأزهرت، هذا كلّ ما في الأمر.

إبيقور

(٣٤١ – ٢٧٨ قبل الميلاد)

فيلسوفٌ مادِّيٌّ يُعزي الوجود إلى الذرّة. أحد أشهر فيلسوفي المتعة؛ إذ طَوَّر فلسفة أخلاقية تُعْلي من قيمة المتعة.

يعرف إبيقور عادة بشكل خاطئ، فكثيرون يُعَدُّون فلسفته فلسفة قائمة بالكامل على المتع المتعددة. بيد أنَّ الرجل لم يقلْ ذلك، فما كان يقصده من المتعة هو نوعٌ من أنواع الصَّفَاءِ الرُّوحِيّ، والفرح القلبيّ.

لكي نحصل على ذلك ماذا علينا فعله يا أستاذ؟

يجيبنا إبيقور: ابتعدوا عن تعقيدات الحياة، تخلصوا من رغباتكم، انسوا الخرافات، والمخاوف، والأوهام الناجمة عن الأديان. لا تفكّروا في الموت، فإذا كنتم أحياء، فلا داعِيَ لأن تفكّروا في الموت. وإذا متم، فقد متم وانتهى، فخوفكم لا معنى له.

انظر إلى السفسطة!

غير أن نتيجة العيش اعتمادًا على المتَع من خلال فلسفة الحياة المادِّيَّة كان له نتيجة مختلفة، فالناس غَرِقوا في عددٍ لا نهائِيٍّ من المتَع المادية للحصول على المتعة، ولهذا أطلق على هذه الفلسفة اسم « فلسفة الخنازير».

يُعَدُّ إبيقور من أتباع المذهب الحتمي فيما يتعلق بالحرية، فيقول: « يستطيع الإنسان اختيارَ بعض الأشياء بإرادته الحُرَّة»، كما كان يقول: « أن تقول: إن

وقت الانشغال بالفلسفة لم يأتِ بعد، أو قد فات لا يختلف عن أن تقول: إن وقت السعادة لم يأتِ بعدُ، أو قد فات».

وبعد وفاته تابع فلسفته الشاعر والمفكر الروماني «لوكريتيوس»، ذلك الرجل الذي أصيب بالجنون في آخر حياته وانتحر.

يا لك من رجل!

كان « زينون الرواقي» يتحدث مع أحد تلامذته الذي كان يصادق على كلّ ما يقوله أستاذه الذي ما أن رأى ذلك حتى نفد صبره، فقاله له: « يا لك من رجل! اعترض ولو لمرة واحدة، قل أية فكرة مختلفة حتى أفهم أننا شخصان لا شخصًا واحدًا!»

لعلك اشتقت الآن ألى أن تعرف شيئًا عن هذا الفيلسوف.. اقرأ الترجمة القادمة، فسوف تشفي غُلّتَكَ:

زينون الرواقي

(٣٣٥ – ٢٦٣ قبل الميلاد)

عاش هذا الفيلسوف في زمن الرومان، وهو يُعَدُّ أبَ «الفلسفة الرّواقِيّة». كلمة «Stoa» هي كلمة يونانية تعني السَّقف.

لم يكن هذا المفكر يمتلك مالًا يكفي حتى ليكون صاحبَ بيت، فكان يلقي دروسه تحت سقفٍ مُهْتَرِئٍ، ولهذا أطْلِقَ عليه، وعلى أتباعه « المدرسة الرّواقِيّة».

يرجع أساس فلسفته إلى « المدرسة الكلبية»، ويُعَدُّ زينون الخبرة والعقل هما طريقة اكتساب المعرفة، حيث يعرِّف الروح على أنها «نَفَس ساخن». يؤمن بوحدة الوجود، ويتخيّل الإله على أنه كيانٌ مادِّيّ محتواه النار، يُعَدُّ شفافًا مقارنة بالكون.

كان مفهومه الأخلاقي يستوجب الزُّهْدَ في متاع الدنيا، وهي أخلاقٌ لا تستند إلى فكرة ترك ما هو موجود عن طِيبِ خاطر، بل تعتمد على فكرة مواساة النفس بسبب الحرمان.

نجده يقول: « يجب على الإنسان ألَّا يتدخّل في سير الحياة، بل عليه قبولها كما هي، وعليه تقوية إرادته، وجعلها قادرةً على التمييز بين المتعة والفعل»، فهو يرى أن الفلسفة موجودة لخدمة هذا الغرض.

شيشرون

(١٠٦ – ٤٣ قبل الميلاد)

كان « ماركوس توليوس شيشرون» رجلَ دولة، وسياسِيًّا رومانِيًّا، كما كان خطيبًا شهيرًا ومحامِيَ دفاعٍ ناجحًا.

كان مفكِّرًا يونانِيًّا. حيث المحاماة، والسياسة، والخطابة هي أبرز المهن. كانوا رجالَ أفعال؛ ولهذا لم يقدِّموا إسهاماتٍ كبيرةً في مجال الفلسفة، وبدلًا من أن يقدِّمَ المفكرون الرومان أنواع فلسفة أصلية، اكتفوا باتّباع الفلاسفة اليونانيين القدامى.

يُعَدّ شيشرون أشهرهم، فلقد نَجَحَ في نقل الفلسفة اليونانية إلى الأجيال التي جاءت من بعده. كان كاتبًا محنّكًا، وهو الذي جعل من اللغة اللاتينية لغة للفلسفة.

وصلتنا الأعمال التي ألّفها في مجال الشيخوخة والصداقة. حيث تميَّزَتْ فلسفته بالانتقائية، أي الفلسفة التي تأخذ شيئًا من هذا، وشيئًا من ذاك لتشكِّلَ تيَّارًا ثالثًا، واعلم –عزيزي القارئ– أنه لم يكتفِ بالفلسفة.

ولكنه كان مهتمًّا بالسياسة، وانخرط بالأحداث السياسية، الأمر الذي عرَّضه للنفي، وعندما لم يتراجع عن نشاطه السياسي أعْدِمَ بقطعِ رأسه الذي عُرِضَ في ميدان روما أمام سكان المدينة!

من أبرز ما قاله: « عليك أن تأكلَ لتعيشَ، لا أن تعيشَ لتأكل».

بُعث عيسى -عليه السلام- نبيًّا أوصل كلامه لقومه، ثم رُفع إلى السماء بعدما عاش حياة نموذجية.

كان الحواريون يبذلون جهودًا كبيرة لنشر دينه. كان الحواري الذي حمل اسم بطرس هو من أسَّس أولى الكنائس.

كان اسم بطرس يعني «الصخرة». وكان عيسى -عليه السلام- قد قال: «سأبني كنيستي فوق الصخرة»، ليقدم هذه الإشارة، أي أنه قدم إشارة بارزة.

حينها كان من اعتنقوا دين عيسى يتعرَّضون لاضطهاد شديد، وكان من يفصحون عن إيمانهم يعاقبون عقابًا شديدًا على أيدي الرومان.

كان بولس في صفِّ منفِّذي العقوبات، وبالرغم من كلِّ جهوده كانت أعداد المؤمنين في تزايد، ولقد عجز عن اختراق جدار الإيمان الذي حاول اختراقه من الخارج لسنواتٍ من خلال الهجمات المتتالية، وذات يوم جاء بولس إلى الكنيسة وقال: « لقد ظهر لي عيسى بينما كنت أسير في طريقي، لقد اهتديت وأصبحت مؤمنًا».

فصدَّقَهُ الحواري بطرس، وكلَّفَهُ بنشر الدين.

تصرَّف بولس في البداية بشكلٍ جَيّد، ثم انفصل عن بطرس، وبدأ يجول بالمدن الكبرى في زمانه لنشر تفسيره للدين.

بولس أو بول أو شاول...

ثمَّة فائدة في معرفة هذا الرجل أكثر، فهو يُعْرف باسم بول، واسمه العبري هو شاول. من اليهود الفريسيين المعروفين بنفاقهم، ويُعَدُّ مواطنًا رومانِيًّا. وُلِدَ في طرسوس، وبالرغم من أنه ليس من الحواريين، إلَّا أنه يُعَدُّ شخصية ذات اعتبار كبير يضاهي مكانة الحواريين، وهو من وضع أساس دين باسم عيسى، لكنه دين خاصٌّ به.

لقد اتّبع بولس الماكر طريقة بسيطة، لكنها ذات تأثير كبير؛ إذ خلط بين بعضٍ من وَعْظِ النبي عيسى، والفلسفة اليونانية، والأفكار الوثنية الرومانية والأساطير، حتى صنع مزيجًا فكريًّا جديدًا رَحَّبَ به الجميع، ذلك أن المجتمعات كانت تعيش منذ قرون تحت تأثير الوثنية، وكانوا يعتقدون أنها جزءٌ منهم، أما بولس، فقد أطلق على عيسى النبي لقب « الرب»، فكان كالذي أخفى شخصيته، وأخرجه من عباءة كونه نموذجًا للناس.

ولقد أرسل الخطابات إلى المدن الكبرى في زمانه، واعتبرت كتاباته مقدسة إلى جانب نصوص الإنجيل، كما بدأ تأسيس الكنائس «البولسية».

ملحوظة صغيرة: يذكر «جلال الدين الرومي» هذه الواقعة في صورة حكاية في كتابه (المثْنَوِي)، لكنه لا يشير إلى شخصياتها بأسمائها.

ما رأى الكنيسة؟

نشأت الكنيسة الكاثوليكية على أسس الكنائس البولسية، وزادت من قوتها المسيطرة خلال السنوات التالية، وأراد كبار القساوسة أوَّلًا توحيد الآراء الدينية، فاجتمعوا في مجلس « إزنيك» عام ٣٢٥، وكان الناس بين أيديهم الكثير من الأناجيل، فلم يقبلوا سوى بأربعة منها: متى، لوقا، مرقس، يوحنا. كما جعلوا من فكرة التثليث، أي الآلهة الثلاثة، هي «الفكرة الرسمية»، معلنين آريوس وأتباعه منحرفين؛ لأنهم قالوا إن « الرَّبّ واحد».

كان دين عيسى الحقيقي على وشك الاندثار، فالقوة المسيطرة للدين الجديد كانت فئة الرهبان التي قويت شوكتها، وبدأت تسير في طريقها لتكوين دولة.

لم يكن «كبراء الكنيسة» ينتهون عند ذلك الحَدّ، لكن حان الدور على المفكرين.

سينيك

(٤ قبل الميلاد – ٦٥ ميلادية)

كان رجلَ قانونٍ، وسياسة يشتغل بالمحاماة، إلى جانب كونه خطيبًا مُفَوَّهًا يتميز بأسلوبٍ سلسٍ ومقنعٍ.

كان «سينيك» ضحية للمكائد والمؤامرات، حيث نُفِيَ بسبب شائعة نشرتها الإمبراطورة «ميسالينا»، وبعد أن عاد من المنفى صار أستاذًا لنيرون الذي كان مرشَّحًا ليكون إمبراطورًا.

كان «سينيك» رجل التناقضات، فهو يحتقر الشهرة، لكنه بالرغم من ذلك مشهور، ويقرض الشعر الذي يمدح به الفقر، لكنه كان غنيًّا. ومادِّيًّا رواقِيًّا، ويتحدث عن إلهٍ «فائق»، فهو يؤمن بخلود الأرواح، ويؤيد أخلاقًا عملية، ويحاول أن يجمعَ بين مبدأ الحياة صديقة البيئة، والحياة الحكيمة.

كان يصف مجتمع زمانه بوصف «قطيع الحيوانات المتوحشة»، لقد رسم «سينيك» صورة الإنسان المثالي في صورة حكيم كان مكتفيًا بنفسه، يبحث عن الراحة داخله، لا يهتم بالمتعة والألم، فهو يستقبل المصائب باعتدال، ويختار الفضيلة بإرادته الحُرَّة، ولا يهاب الموت.

اعتزل السياسة في آخر حياته، كما تنازل عن جزء من ثروته، وكرَّس وقته بالكامل للفلسفة، وفي نهاية المطاف انتحر بقطع شرايينه!

كان «سينيك» قد قال بعض العبارات المشجِّعة على التفكير:

«مَنْ لا يحمل هدفًا في حياته يشبه بقايا التبن التي تتقاذفها مياه النهر المتدفِّقة».

«يا أيتها الحياة! إنك مَدِينةٌ بقيمتك الغالية هذه إلى الموت!».

وحيدًا شريدًا

بينما كان الكاتب الإغريقي إيسوب منشغلًا في منزله بكتبه دخل أحد أكابر قومه دون أن يقرع الباب، فخاطب الفيلسوف بقوله: « أتعجب كيف تستطيع المكوث بمفردك هكذا؟»، فرفع إيسوب رأسه مجيبًا: « لست وحيدًا، لكني أدركت إلى أية درجة أنني وحيد ما أن دخلت من الباب»!

أبكتيتوس

(٥٠ – ١٣٠)

ليس بين أيدينا الكثير من المعلومات عن حياته. كان أسيرًا خلال الشطر الأول من حياته. كان سيده ظالمًا؛ إذ يستمتع بربط ساقه بالكلّاب، يا لها من متعة!

كان أبكتيتوس يقول: «ساقي ستنكسر يا سيدي»، لكن سيده ما كان ليستمع لكلامه، وظل يواصل الضغط على ساقه بالكلّاب إلى أن انكسرت ساقه! فخاطبه فيلسوفنا بمنتهى الهدوء قائلًا: «أرأيت؟ لقد انكسرت كما قلت». ولهذا السبب فقد كان أعرجَ. حُرِّرَ من الأسر عندما شاخ، لكنه كان منفِيًّا فقيرًا. لم يتزوج قط.

يُعَدُّ أبكتيتوس من فلاسفة الرّواقِيّة، فلم تكن فلسفته ممنهجة، كما لم يؤلف الكتب، لكن بين أيدينا بعض خطاباته التي سجَّلها تلامذته كتابة. كان ممَّا قال «الفلسفة هي حبُّ الحكمة والحقيقة، وعلى من يريد السير في هذا الطريق ألَّا يبالي بنقد الناقدين، أو الخوف ممّن يبدو في صورة الغبي في الأمور التي لا تهم الروح».

اتخذ أبكتيتوس من سقراط مثالًا له، وكان يرى الفلسفة أسلوب حياة.

وأنت تجد تعريفه للفيلسوف يُعَدُّ ملخصًا رائعًا لأفكاره حول أهداف الفلسفة؛ إذ قال:» الفيلسوف الحقيقي لا ينعت نفسه بالفيلسوف، ولا يسرد الكلام المعسول أمام الناس، بل يحاول بكلِّ ما أوتِيَ من قوة أن يطبِّقَ ما يقوله على حياته الواقعية، جرّب أنت أيضًا أن تفعل هذا، مثلًا: لا تسرد على الناس كيف عليهم أن يأكلوا عندما يجلسون على مأدبة طعام، بل كُلْ أنت كما يجب أن يؤكل الطعام!».

كما كان تصنيفه للفلسفة مثيرًا للإعجاب:

« أهم قسم في الفلسفة هو القسم الذي يحكي كيف تطبق القواعد. على سبيل المثال: يجب ألَّا يكذب الإنسان، وأما القسم الثاني منها، فيتضمن إثبات هذا: لماذا يجب ألَّا يكذب الإنسان؟ وأما القسم الثالث، فيحتوي على قواعد، وطرق هذا الإثبات. يكون القسم الثالث من أجل الثاني، وأما الثاني، فمن أجل الأول الذي يُعَدُّ أهمَّ قسمٍ فيهم؛ إذ يجب الوقوف عنده: يجب ألّا يكذب الإنسان!

أما نحن، فنعكس هذا الترتيب في معظم الأحيان، فكل جهدنا يكون مُنْصَبًّا على الإثبات، وننسى القسم الأول، أي التطبيق، وهكذا لا نتردَّد عن الكذب عند الحاجة، لكننا مستعدون دائمًا أن نبرهن على فرضية: لماذا يجب على الإنسان ألَّا يكذب!».

ماركوس أوريليوس

(١٢١ - ١٨٠)

هو « ماركوس أنيوس كاتيليوس سيفيروس»، وعندما تزوَّج صار اسمه «ماركوس أوريليوس»، لكنه لم يكتفِ بذلك، بل إنه عندما أصبح إمبراطورًا أطلق على سعادته اسم «ماركوس أوريليوس أنطونينوس».

تزوج ابنة إمبراطور روما الذي كان قد تبنَّاه، وأصبح إمبراطور روما بعد وفاة والد زوجته.

تلقى تعليمًا أدبِيًّا، وحجز لنفسه في شبابه مقعدًا بين الفلاسفة، وتبنّى أفكار الفلسفة الرواقية، وتأثر بأفكار أبكتيتوس، وكان يعاقب كلَّ من يؤمن بالنبي عيسى -عليه السلام - ويعلن هذا الإيمان.

كان يقول: إن الحياة وفق العقل والطبيعة كافية ليكون الإنسان سعيدًا. اشتهر بكتابه «التأملات» الذي كان يخاطب به نفسه قائلًا «أنت». قال ذات مرة:

«الأشياء الجسدية تتدفق، وتختفي كمياه النهر، وأما الأشياء الروحية، فهي كالأحلام. الحياة كفاح، وأما ذكر اسمك لاحقًا، فهو نسيان».

أفْلُوطِينُ

(٢٠٣ - ٢٧٠)

مفكِّرٌ من أصولٍ يهودِيّة، أفلاطونيٌّ جديد، وفيلسوفٌ جعل من فلسفته دينًا، كما يتميَّز بمزيجٍ من الأفكار لها بُعْدٌ صوفِيٌّ.

يرى أفلوطين أن الكيان الحقيقي هو « الواحد» يخرج منه «nous» أي العقل الذي تتمخَّضُ عنه « روح الكون» التي – بدورها – نتجت عنها المادة.

يطلق على هذه الاشتقاقات مصطلح «الانبثاق»، أو «النشوء». لا يمكن إدراك الكيانات الثلاثة الأول سوى بالعقل، مَنْ إذًا ذلك الكيان «الواحد»؟ الإله بكل تأكيد.

يستطيع الإنسان الارتقاء إلى « الواحد» بجَعْلِ روحه سامية، ولفعل هذا ينبغي له أن يفتح عَيْنَيْ قلبه، فالشخص الذي يفتح عَيْنَيْ قلبه يدرك أنَّ الكلَّ إنما هو انعكاس لذلك « الواحد»، ولقد أثَّر هذا النوع من الأفكار كثيرًا على التيارات الصوفية في الشرق، والغرب، فعلى سبيل المثال استمدَّ مفكرون مسلمون من أمثال: الفارابي، وابن سينا، وابن رشد منه « نظرية الانبثاق».

وهناك من يقول إن أساس التصوف الإسلامي قائمٌ على هذه الأفكار، بيد أن المتصوفين الإسلاميين يعارضون هذه الفكرة بشِدَّة.

أوغسطينوس

(٣٥٤ - ٤٣٠)

كان أسقُفًا مسيحِيًّا. من أشهر شخصيات «الفلسفة البطريركية»، أي فلسفة «آباء الكنيسة»، وقد حاول الرَّدَّ على الانتقادات الموجَّهة للدين المسيحي، حيث كان يهدف للتوفيق بين الأفلاطونية الجديدة، والمسيحية. وكان ذلك نوعًا من أنواع التوفيق بين الإيمان، والعقل، بالإضافة إلى أنه فكَّر في الدفاع والتقوية بواسطة الفلسفة الدينية.

طرح أوغسطينوس الفكرة التي تقول إن «الكنيسة بريئة». اسمعه يقول:

« نحن ضعفاء لدرجة تجعلنا عاجزين عن الوصول للحقيقة فقط بعقولنا»، كما قال في عبارة شهيرة:» أصدّق حتى أفهم»، وله كلمة تلميحية أخرى بارزة: « أن تسير في الطريق الصحيح سيرًا بطيئًا خيرٌ لك من أن تسيرَ هنا وهناك بخطواتٍ سريعةٍ».

لم يكن « أوغسطينوس» وحيدًا في تَبَنِّي هذا الفكر بطبيعة الحال، كان معه كذلك «الآباء» الثلاثة: أمبروز، جيروم، جريجوري.

قال أمبروز: « إن الكنيسة تتفوّق من الناحية الرُّوحِيَّة على الجميع بمَنْ فيهم الإمبراطور»، أما جيروم، فقد ترجم نَصَّ الإنجيل إلى اللَّاتينية، ودعم بناء الأديرة، كما حاول التعبير عن أفكاره عبر كتابة الكثير من الكتابات التي احتلّت فيها مسألة كيفية حماية البكارة مكانة مُهِمّة.

بوثيوس

(٤٨٠ – ٥٢٤)

فيلسوفٌ مسيحيٌّ عاش في زمن الرومان، وورد اسمه في مخطط اغتيال، ولهذا حُكِمَ عليه بالإعدام، كما تعرّض لشتَّى صنوف التعذيب الشديد، وقُتِلَ ضربًا بعصا سميكة!

ألَّفَ عملًا أطلق عليه «سلوى الفلسفة»، وممّا قاله: « وجدت في الفلسفة السلوى التي لم أجدها في العقيدة المسيحية». حاول في كتاباته البرهنة على صدق الفكرة التي تقول: « لا تبقى الإساءة دون عقاب، ولا الإحسان دون مكافأة».

كان من أكبر المعجبين بأفلاطون وأرسطو؛ ولهذا بذل جهدًا حثيثًا لترجمة مؤلفاتهما، كما أطلق جدالًا قال فيه: « هل المثُل التي زعم أفلاطون وجودها موجودة حقًّا؟»! وهو الجدال الذي استمرّ لقرون بعد وفاته.

إيمانٌ صَافٍ

وصلنا إلى القرن السابع الميلادي، أي فترة الركود التي أصابت الفلسفة. كانت الكنيسة تعزِّز قوّتها بمرور السنين، وأضحتِ الفوضى تسود المجتمعات والعقول، وكذلك الأرواح.

ظهر الإسلام في ظل هذه الظروف، وبدأ ينتشر بسرعة لم يكن أحدٌ يتوقّعها. حتَّى أن بعض مؤرخي الفلسفة يعتقدون أن أهم عوامل انتشار هذا الدين بهذه السرعة كان تقديمه للناس « إيمانًا نقيًّا كقطراتِ المطر». كان دينًا بسيطًا وصافيًا وواضحًا. فأنْ يقول الإنسان: «لا إله إلا الله»، فذلك معناه أنَّ الجميع عبيدٌ له بمن في ذلك النبي، فلمْ يكُ يعطي أحدًا مَيْزَةً إضافية.

كان، ولا يزال، وسوف يظلّ القرآن الكريم- كلام الله- واضحًا بشكلٍ لا يدع مجالًا للشَّكِّ، كما كانت الحياة المثالية التي عاشها النبي محمد — صلى الله عليه وسلم — معروفة للجميع، وباتَ واضحًا أنَّ ممارساتِ هذا الدين بسيطةٌ للغاية، ولم يكن هناك مكان لمؤسسة ضغط كما هي الحال للكنيسة في المسيحية، كما لم يَحُدّ الإسلام من حرية المفكرين، ولم تعرف عصور الإسلام إقصاءَ العلماء، بل على العكس تمامًا، فهذا الدين كان يريد من الجميع أن يتفكَّر في الكوْنِ من حوله، وكان الوحي يخاطب العقل بسؤال: «أفلا تعقلون؟»

ماذا بعد ذلك؟

نقل علماء التفسير والحديث والفقه بوجه عام الدين الإسلامي بعد وفاة الرسول إلى الأجيال التالية، غير أن مدارس الكلام، والتصوّف، والفلسفة نشأت، وتطوَّرت هي الأخرى، وإن كان ذلك حدث في نطاقٍ ضيّق.

ألّف علماء الكلام» المعتزلة والأشاعرة» كتبًا تستند إلى العقل للدفاع عن العقيدة الإسلامية، وأما الصوفِيّون، فكانوا يقدِّمُون نماذجَ من الانضباط الرَّامية لتربية النفس، وحَثّ الروح على السَّعْي وراء أهداف سامية، ولا شَكّ في أنَّ أولئك كذلك لعبوا دورًا في عملية انتشار الدين، وأما الفلاسفة الذين كانوا يعيشون في الديار الإسلامية، فقد درسوا مؤلفاتِ الفلاسفةِ اليونانيين وتأثروا بعظمائهم أمثال: أفلاطون وأرسطو، وكانوا يمزجون في كتاباتهم بين الفلسفة، والعقيدة الإسلامية.

ابنُ الرَّاوَنْدِيّ
(تُوُفِّيَ ٧٥٢)

كانت البلدان الإسلامية تنظر بتسامح أكبرَ للتفكير الحُرّ مقارنةً بالغرب. فحتى المادِّيُّون، والطبيعِيُّون الذين كانت أفكارهم تعارض تمامًا العقيدة الإسلامية كانوا قادرين على التعبير عن أفكارهم بحُرِّيَّة.

كان ابنُ الرَّاوَنْدِي أحدَ أبرزِ هذه النماذج؛ إذ كان فيلسوفًا «دَهْرِيًّا» عاش بين المسلمين، والدّهْرِيُّ هو الشخص الذي يؤلِّه الزمانَ! وكان العلماء المسلمون يطلقون على المفكرين الذين يتبَنّون مفهوم الكيان المادِّيّ اسم «الدهريين»، ووصف «الدَّهْرِيّة» على ما يفعلونه من أنشطة.

كان ابنُ الرَّاوَنْدِي يقول: « المادَّة أزَلِيّة، وكلّ شيءٍ ظهر بمفرده بمرور الزمان، ولهذا فليس هناك خالق»! وكان ذلك إحدى الأفكار المادية. ويطلق مصطلح « الرَّاوِنْدِيّة « على فلسفته.

الكِنْدِيّ
(تُوُفِّيَ ٨٦٦)

فيلسوف من أصل عربي ينحدر من عائلة معروفة. تربَّى يتيمًا، لكنه كان ثريًّا بخيلًا، ويُعَدُّ أول الفلاسفة « المسلمين». يعرف عند الغرب باسم «Alkindus». صاغ الفارابي فلسفة الكِنْدِيّ في إطارِ نظامٍ مُحَدَّد.

وقد ألَّف أعمالًا في كلّ المجالات تقريبًا؛ إذ تبلغ مؤلفاتُهُ أكثرَ من مئة مؤلَّفٍ في مجالات مثل: الفلسفة، والطب، والرياضيات، والفلك، والدين، والسياسية، وعلم النفس، تُرْجِمَتْ بعضُ أعماله إلى اللَّاتينِيّة.

يُعَدُّ أبًا للمدرسة المشّائية، وهو الاسم الذي أطْلِقَ على فلسفة أرسطو في العالم الإسلامي. وكان أرسطو يلقي دروسه وهو يمشي، ومن هنا جاء اسم مدرسته. وفي الوقت الذي اعتمد فيه المفكرون المسلمون المدافعون عن هذه الفلسفة على الدين الإسلامي، فإنهم تبَنَّوا الفلسفة الأرسطية كطريقة فكرية. ومن أشهر علماء هذه المدرسة نذكر الفارابي، وابن سينا، وابن رشد.

أبو بكر الرَّازِيّ
(٨٦٥ – ٩٣٣)

من الفلاسفة الذين عُرِفُوا في تاريخ الفكر الإسلامي بـ»الطبيعيين». كان يولي اهتمامًا كبيرًا بالملاحظة، والتجربة، فكان مهتمًّا بالطب والكيمياء، وتُرْجِمَتْ بعض أعماله إلى اللَّاتينية.

كان يؤمن بوجود الإله، لكنه كان ينكر الوحي! كان يقول: « أكبرُ هدفٍ يحمله البشر هو مضاهاة الإله». وهاجم الأنبياء بشدة! ولم يكن يعترف بالبعث بعد الموت، لكنه آمن بانتقال الروح من جسد إلى آخر.

كان اتّجاهه للطب، والفلسفة مثيرًا للدهشة، وهوى في شبابه عزف العود والغناء، وعندما تقدّمتْ به السِّنُّ، وبدأ الشعر يتكاثر على وجهه ترك الغناء قائلًا: « لا يليق أن يخرج الغناء من بين اللحية والشارب»، فبدأ يتعلم الطب والفلسفة.

اضربوه بكتابه على رأسه!

ألَّف الرازي كتابًا في الكيمياء، وعرضه على حاكم عصره، فأعطاه الحاكم ألفَ دينار، وأراد منه تطبيق ما جاء بكتابه، وأمر بتجهيز كلِّ ما يلزم لتطبيق ما كتبه، غير أنَّ الرازي عجز عن تطبيق النظريات الواردة في الكتاب! فغضب الحاكم كثيرًا، وأمر قائلًا: « اضربوه بكتابه على رأسه!»، فضربوه بالفعل على رأسه، فأصيبَ بالعمى.

إخوان الصفا

هو الاسم الذي أُطْلِقَ على مجموعةٍ من الفلاسفة الذين ظهروا في منطقة قريبة من البصرة في القرن العاشر الميلادي، وإذا ما نظرنا إلى ما قاله المعلِّقون، سنرى أن هؤلاء الفلاسفة سَعَوْا لنشر» المذهب الشيعي الإسماعيلي».

تأثر إخوان الصفا بالفلسفة الإغريقية، والأفلاطونية الجديدة، كما تَبَنّوا «نظرية الانبثاق»، حيث نستطيع أن نرى في مؤلفاتهم آثارًا للديانات الإيرانية القديمة، وكذلك احتلت التفسيرات الباطنية مكانةً مهمَّةً في أعمالهم. ألف هؤلاء ٥٢ رسالة للتعبير عن أفكارهم، ونشروها بعدما طعَّموها بالتأثرات التي تعرضوا لها من مختلف المدارس الفكرية.

جُمِعَتْ أعمالُهم على يَدِ مجموعة يقودها «زيد بن رفاعة»، ثم كتبت بقلم أبي سليمان، حتى نُشِرَتْ بين العامة خِلْسَة. وتأتي هذه الرسائل في صورة موسوعة، وقد وصلت بعد نحو مائة عام إلى الأندلس، وهي سرعة انتشار فائقة في عصر حُرِمَ من وسائل الاتصال المتاحة في عصرنا الحالي!

الفارابي

(٨٧٠ – ٩٥٠)

ينحدر من أصولٍ تركيّة، وُلِدَ في تركستان، واسمه الحقيقي محمد. يعرف في الغرب باسم «Alpharabius» أطلق عليه لقب الفارابي؛ لأنه وُلِدَ في مدينة «فاراب».

تلقى تعليمه في مدارس بغداد، كما تلقَّى دروسًا في المنطق من مفكرين مسيحيين، كما درس مؤلفات الفلاسفة الإغريق، وحاول في مؤلفاته التوفيق بين الإسلام والفلسفة.

ينتمي الفارابي إلى المدرسة المشّائية، وقد استفاد من أفكار « أفلوطين»، المنتمي بدوره إلى المدرسة الأفلاطونية الجديدة، بينما كان يضع أسس فلسفته الخاصة. وتنحصر أفكاره المتعلقة بالوجود في التالي:

الله واجب الوجود، أي أن وجوده واجب، ولا يحتاج إلى أحدٍ ليكون موجودًا، كما أنه موجود منذ الأزل، وخالق كلّ المخلوقات التي تُعَدّ كائناتٍ «ممكنة»، أي أنها وجدت لنفسها الحياة نتيجة اختيار مرجِّح. كما أن الله موجب بالذات، أي أنه خالق « بالضرورة» ما إن تجتمع الأسباب، وقد صدر عن الخالق «العقل الأول»، ثم منه انبثق عقل آخر، وهكذا جاء عقل جديد في كل مرة. وبخلاف ذلك، فإن المخلوقات مقسّمة لدرجات، والمادة أزلية.

لقد وجَّهَ العلماء المسلمون انتقاداتٍ شديدةً إلى « نظرية العقول المنبثقة»، وفكرة « الخلق بالضرورة»، والنظرية التي تقول إن: « المادة أزلية»؛ ذلك لأنَّ العقيدة الإسلامية تنصُّ على أن الله واحدٌ لا شبيهَ، ولا نِدّ، ولا عَوْنَ له. كما أنه صاحب إرادة، فإذا أرادَ خَلَق، وإن لم يُرِدْ لم يخلق، وحين نقول نحن: « لقد خلق بالضرورة» فهذا يعني تجاهل إرادته سبحانه وتعالى.

لا يمكن القول إن « المادة أزلية»؛ لأنَّ الله خلقها، كما هي الحال لكلِّ المخلوقات التي خُلِقَتْ من عدم نتيجة لخلقه.

ابنُ مسكويه

(٩٢٠ – ١٠٢٠)

فيلسوفٌ إيرانيٌّ اهتمّ بالأخلاق، وعلم النفس. وألَّف أعمالًا في مجالات الفلسفة، والطب، والرياضيات. يدافع عن الفكرة التي تقول: إنّ الروح ليست شيئًا ماديًّا، وهو يسوق عدة أدلة مختلفة لإثبات وجود الإله. ويقبل بمسألة النبوة، كما يقول: إنَّ بعض الأشخاص الذين ارْتَقَوْا من الناحية الروحية قادرون على الحصول على معلوماتٍ بلا وسيط.

ينتسب ابن مسكويه للمدرسة المشّائية. وقد لفت الانتباه كثيرًا لا سيما بنظامه الأخلاقي؛ إذ يؤمن بإمكانية إكساب الإنسان الأخلاق الحميدة. واعلم أنَّ أحد أشهر أعماله هو كتاب: «تهذيب الأخلاق».

أصيب بالخَرَفِ في شيخوخته، وهناك رواية تقول: إن ابن سينا سخر من حالته تلك، ولقد ارتكب عيبًا إذا كان قد فعل هذا حقًّا!

ابن الهيثم

(٩٦٥ – ١٠٣٩)

ينحدر من البصرة الواقعة اليوم جنوبي العراق. يُعَدّ أول من تحدث عن النظام الشمسي، وله دراساتٌ حول مشكلة المعلومات.

عالم فيزياء، أجرى دراساتٍ في مجال البصريات، وقال – فيما يتعلق بالرؤية– إن الأشعة تخرج من الأشياء، وكان يُعتقَد قبل ذلك أن هذه الأشعة تخرج من عين الإنسان.

يَعُدُّ ابن الهيثم الفلسفة أساسَ كلّ العلوم، وتعجبه فلسفة أرسطو، كما يعُدّ المنطق أحد الأشياء التي لا غنى عنها بالنسبة له.

تُرْجمت مؤلفاتُهُ إلى اللغات الغربية، كما أثَّر في مفكرين، وعلماء غربيين أمثال: روجر بيكون، ويوهانز كيبلر.

أبو ريحان البيروني

(٩٧٣ – ١٠٥١)

فيلسوفٌ وعالمٌ من أصلٍ تركِيٍّ، تُوُفِّيَ والده وهو في سِنٍّ صغير، فرَبَّتْه أمه عن طريق بيع الحطب، وكان طفلًا شغوفًا لا يهدأ فضولُهُ. كما اهتمَّ بتحصيل العلم، وأقبل عليه في عمرٍ مبكِّر، وتخصّص له في عهد ملوك الدولة الخوارزمية. لاقى تقديرًا كبيرًا في عهد الغزنويين لدرجة أنه عمل وزيرًا لفترة حينها.

كان طبيبًا وصيدلِيًّا متميّزًا . سطّر أعمالًا عديدة في مجالات علم الفلك والطب والرياضيات التاريخ والفيزياء. تبادل مع ابن سينا وجهات النظر حول مسائل العلم، والفلسفة عن طريق الخطابات المتبادلة بينهما، وتناقشا في قضايا مهمَّة.

كان البيروني يتمتع بذكاء فائق، فأشار إلى دوران الأرض حول نفسها وتحدث عن الجاذبية الأرضية، وقام بحساب طول خط الاستواء، واستطاع تحديد اتِّجاهه بالعمليات الرياضية، كما اخترع عددًا كبيرًا من الآلات، وحدَّدَ الوزن النوعي لـ23 جسمًا صلبًا، و6 أنواع من السوائل بدِقّة عالية تقترب من قيمها الحالية.

استدعاه « محمود الغزنوي» في رحلة سياحية للهند، وعند عودته كتب كتابًا حول رحلته، كما ألَّف كتبًا في فروع كثيرة جِدًّا من العلم، وتُرْجِمَتْ بعض كتبه إلى اللغات الغربية، وقد عُرف في بلاد الغرب باسم «Aliboron».

ابن سينا

(٩٨٠ – ١٠٣٧)

عالم وطبيب، اشتُهر في الغرب بلقب « Avicenna»، كان كتابه في الطب «الشفاء ‘‘بمثابة مرجعٍ، وكتابٍ دراسيٍّ على مَرّ العصور، فقد دُرّس في مدارس الشرق والغرب على حَدٍّ سواء.

درس ابن سينا حياة الفلاسفة الإغريق، وتأثَّر بهم، وهو مشّائي كالفارابي. وقد بذل جهودًا كبيرة للدمج بين الفلسفة بالدين.

يرى ابن سينا أن الله خلق في بادئ الأمر «روحًا خالصة ‘‘كان يطلق عليها «العقل المؤثر»، فكان هذا الكيان هو «السبب الأول».

كما طوَّر مفهوما للتصوف يُعَدّ فريدًا من نوعه؛ لما يحمله من تأثيراتٍ أفلاطونية. ومن بين ما قال: « لو نضج الإنسان بالعلم لاتَّصل بالعقل المؤَثّر وأدرك الحقيقة المطلقة».

كانت آراؤه كالفارابي فيما يخصُّ المادّة، والإرادة الإلهية، فكان يكرّر أفكاره.

يُعَدُّ ابن سينا من المفكرين الذين كان لهم تأثيرٌ عميقٌ على الفلسفة الغربية، كما لعب دورًا في نشأة الفلسفة المدرسية (السِّكولائِيّة).

وعلى ما يبدو، فإن ما يلي هو كلامٌ قاله الفيلسوف، وأستاذ الأطباء ابن سينا لمن يعانون مشاكل في الصحة، والتغذية، وزيادة الوزن، فيقول: «جمعت لكم علم الطب بسطرين، وخير الكلام ما قلَّ ودلَّ، عندما تأكل، كل القليل،

ولا تأكل حتى مرور من أربع لخمس ساعات بعد الأكل، فالشفاء في الهضم. وليكن مقدارك من الأكل ما يسهل على المعدة هضمه، فالمرهق للمعدة والنفّس، والأكثر ثقلًا عليهما هو أكل الطعام بعد الطعام».

الأدب قبل كل شيء:

سألوا لقمان الحكيم:«من أين تعلَّمتَ الأدب؟»

قال: «من عديمي الأدب».

فسألوه«: وكيف ذلك؟»

فقال:«حاولت تجنُّبَ أفعالهم».

أسقف كانتربري أنسلم

(١٠٣٣ - ١١٠٩)

مسيحيٌّ، من أوائل فلاسفة القرون الوسطى، ويُعَدُّ مؤسس«الفلسفة السِّكولائِيّة». سافر، وتنقَّل باسم الدفاع عن العقيدة المسيحية، مجادل بارع ذو حُجّة، ولديه ألاعيبُهُ المنطقية المدهشة.

استفاد من كتب المفكرين المسلمين أمثال: الفارابي، وابن سينا.

كان يقول إن:«الرجل الذي يعيش من أجل أفكار كبيرة يجب أن ينسى نفسه». بالمناسبة لنتحدث أيضًا عن مصطلح «السِّكولائِيّة»، فهذا المصطلح مستخدم بكثرة في النصوص الفلسفية، وقد ظهر في القرون الوسطى.

كان الهدف من هذه الفلسفة التوفيق بين العقل والإيمان، أو بين الدين والفلسفة ولهذا أقاموا نظامًا وِفْقَ فلسفة أرسطو. بدأت جدالاتٌ مستمرّةٌ على مدى قرون، وكان ذلك هو أهمّ موضوع جَدَلِيّ: هل العوالم حقيقية أم لا؟ فأفلاطون كان يقول إنها حقيقية، وهو ما دافع عنه المدرسِيّون، أما المعارضون، فكانوا يقولون: «لا، فهي عبارة عن أسماء مجرّدة ليس لها واقعِيّةٌ موضوعِيّةٌ». ومن هنا ظهر ما يُعرف بـ»الفلسفة الاسمية».

عُمَرُ الخَيّام

(١٠٤٤ - ١١٢٣)

عالمٌ، وشاعرٌ، وفيلسوفٌ إيرانِيٌّ، اسمه الحقيقي «أبو الفتوح عمر بن إبراهيم»، كان أجداده يصنعون الخيام، ويبيعونها؛ ولهذا لُقِّبَ بـ«الخيّام».

هو أشهر أساتذة الشعر المعروف بالرباعيات. ولرباعياته النصيب الأكبر في تكوين شهرته بهذا القدر، وهي عبارةٌ عن أشعارٍ تتميّز بأنها قصيرةٌ مختصرةٌ ذات لغةٍ بسيطةٍ سهلةِ البيان، أما بالنسبة إلى فلسفته، فالخيام متشائِمٌ دائمُ التحسُّر، والشكوى .يبكي كطفلٍ يتيمٍ وحيدٍ في ظلامٍ دامس.

إذًا ماذا عساه أن يفعل؟

عليه أن يحيا، ما دامت الدنيا عابرة زائلة، وكلُّ شيء نخسره من بين أيدينا، فعِشْ يومَكَ بيومك، ولا تبالِ بما وراء ذلك.

يتحدث كثيرًا عن الخمر في أشعاره؛ ولهذا كان معشوق المترددين على الحانات!

معروفٌ، ومحبوبٌ في العالم الغربي، وقد تُرْجِمَتْ رُباعيَّاتُهُ مرات عِدَّة إلى جميع اللغات المهِمّة.

محمد الغزالي «أبو حامد»

(١٠٥٨ - ١١١١)

عالم مسلم، وفيلسوف صوفي، لم يكن والده عالمًا، لكنه كان عاشقًا للعلم حتى أنه أوصى أولاده وهو على فراش الموت بتحصيل العلم، فنفَّذَ الغزاليّ وصية أبيه على أكمل وجه ليصبح عالمًا كبيرًا.

عمل أستاذًا في المدرسة النظامية. واتّخذ الصوفية نهجًا له بعد أن عاش أزمة فكرية، فهو يشرح شغفه بالعلم والفلسفة على النحو التالي:

«منذ بداية شبابي كنت شخصًا متعطِّشًا لفهم الحقائق، ولقد كانت هذه عادة فطرية، ففي بادئ الأمر قلت لنفسي: إن هدفي هو معرفة، وفهم حقيقة الأمور».

قرأ دون توقُّف، فكر وكتب، فبلغ عدد كتبه أكثر من سبعين كتابًا، ويُعَدُّ العمل الضخم الذي أسماه:« إحياء علوم الدين» من الكتب الأساسية في التّصَوُّف.

كان لكتابه: «تهافت الفلاسفة» شهرة كبيرة، حيث ينتقد في هذا الكتاب أفكار مفكرين من المدرسة المشّائية مثل: الفارابي، وابن سينا بسبب طرحهم أفكارًا تخالف العقيدة متأثّرين بفلسفة الغرب.

وكان يسعى فيه لإثبات أخطاء تفسيراتهم التي تعتمد على العقل فقط في فترة كان التطور العلمي فيها لا يزال في مرحلة متأخرة، ويبرهن أيضًا على مساوئ خَلْطِ هذه المغالطات في الدين.

وظل يبحث عن دقة المعرفة، ويرى أنه يمكن اكتساب المعرفة عن طريق العقل والحواس في العلوم المادية، ولكن في المسائل الخارجة عن نطاق الحواس، فإن الحواس تعجز عن إدراك الحقيقة المطلقة.

إن الحدس هو السبيل الوحيد لاكتساب المعرفة في المجالات التي تكون خارج نطاق الشعور، وإن نافذة جديدة تُفتح أمام روح الشخص الذي نضج بالتصوف، فيرى الحقيقة عبر تلك النافذة، وإن طريقة اكتساب هذه المعرفة يُسمَّى بـ«الوَحْى» في النُّبُوّة، وبـ«الإلهام» في الولاية.

اطَّلعَ الغربُ على أفكاره عن طريق الأندلس، وتُرْجِمَتْ أعماله إلى اللَّاتينية، فكان له تأثيرٌ كبيرٌ على بعض المفكرين؛ إذ تَبَنّى«ديكارت» جانبه الشَّكِّيّ المنهجِيّ، فيما تَبَنّى «كانت» نقده للعقل المجرّد، وذهب «برجسون» مذهبه عندما قال إن: «الحدس هو مصدر المعرفة».

أبو البركات البغدادي

(١٠٧٦ - ١١٦٩)

اسمه الحقيقي «هبة الله» بغداديٌّ ينحدر من أسرة يهودية، عاش في زمن العباسيين، وعُرِفَ بكونه طبيبًا ماهرًا، اعتنق الإسلام في أواخر عمره، وانتقد المعتقدات اليهودية.

يُعَدُّ من الفلاسفة المستقلين، فلم ينضم أبدًا إلى أيٍّ من مذاهب الإشراقيين، والمشّائين الذين شاع انتشارهم في عصره، بل انتقد كلًّا من المشّائين والمعارضين لهم.

نال كتابه : « المعْتبرُ في الحِكْمة» شهرةً واسعةً، ويتناول في هذا الكتاب موضوعاتٍ حول المنطق، والفيزياء، والميتافيزيقا، ويُبدي فيه آراءَ مهمَّة تتعلَّق بالوجود، والحركة، والزمان، والمكان.

وقد صَنَّفَ العلوم على النحو التَّالي:

المنطق، والرياضيات يندرجان ضمن العلوم الذهنية، والكيمياء، والفيزياء ضمن العلوم الحسية التجريبية، أما علم الإلهيات والميتافيزيقا، فيدخلان ضمن العلوم العقلية.

بيار أبيلار

(١٠٧٩ – ١١٤٢)

هو مفكِّرٌ، وعالمُ دينٍ فرنسِيّ رفض أن يكون مثل والده الذى كان إقطاعِيًّا. اختار الذهاب إلى باريس لوَلَعِهِ بالعلم. وافتتح مدرسة، وهو لا يزال في الثانية والعشرين من عمره، ودرّس لطلابه علم المنطق الجدلي واللَّاهوت، كان يحاول تأسيس النقاش الديني على أساسٍ منطقيّ، فخالف الآراء الفلسفية لكلٍّ من الواقعيين والاسميين. لكنه أحرق كتابه« مدخل إلى علم اللَّاهوت » بسبب آرائه المعارضة.

وقع أبيلار في عشق فتاة تدعى إلواز، وتزوجها سِرًّا، لم يقبل عم إلواز بهذا الوضع، فاستأجر مجموعة من الرجال فَخَصُوه! ليصبح من بعدها راهبًا متّخذًا من الدير مقرًّا له، وَتُوَفِّيَ بعد أن عاش حياةً صامتةً مريرة.

ابن باجة

(تُوَفِّيَ ١١٣٨)

من فلاسفة الأندلس، واسمه بالكامل :» أبو بكر محمد بن الصائغ»، عمل في شؤون الدولة، ومات في شبابه.

كان رجلًا متشائمًا ينتظر موته ويتمنّاه، وشخصيته غير مَرِنَة، فلم يستطع التكيف مع بيئته، كما اهتمَّ بالموسيقى، وكان يعزف العود.

كان من أنصار مذهب المشّائين الأندلسيين، شرح أعمال أرسطو، وكتب مقالاتٍ ردًّا على انتقادات الغزالي.

كان يرى أن العقل هو الوسيلة الوحيدة لتحصيل العلم، وأنه ليس هنالك قيمة للمعرفة المكتسبة عن طريق الحواس، ويصف الكائنات على هيئة أرقام.

عثر له على أربعٍ وعشرين رسالة تتعلق بالفلسفة، ويُعَدُّ من الفلاسفة الحالمين بمجتمع مثالي فاضل.

أثر في الفلاسفة الأندلسيين الذين جاءوا من بعده كما كان له تأثيره أيضًا على العالم اللَّاتينِيّ، وقد عُرف في الفلسفة الغربية باسم .« Avempace »

السهروردي المقتول

(١١١٥ - ١١٩١)

مؤسس الفلسفة الإشراقية، لُقِّبَ بـ«المقتول» ؛ بسبب أنه أُعْدِمَ . وكان قد درّس لكثير من رجال الدولة المهمين. اشتُهر بكتابه المعروف باسم « حكمة الإشراق».

في البداية مال إلى مذهب المشّائين، وبعد ذلك طوَّر فلسفة « المدرسة الإشراقية» من خلال الجمع بين الحدس والعقل. وتبدو آثار الأفلاطونية الحديثة على فلسفته، كما أنه جمع بين الحدس والعقل كطريقٍ لتلقِّي المعرفة. قال إن: «المعرفة العقلية لازمةٌ، ولكنها غيرُ كافيةٍ لإيجادِ الحقيقة».

جمع في الفلسفة الإشراقية بين الصوفية، والمشائية، ولكنه لم يقبل بحالة النشوة، والوجدان المعروفتين في التقليد الصوفي.

يقول بعض مؤرخي الفلسفة إن السهروردي أخذ من التعاليم الزرادشتية وتأثَّر بها عند تطويره للفلسفة الإشراقية، لكنَّ أتباعه رفضوا تلك الاتهامات.

ونريد أن نُنَوِّهَ إلى تلك الملحوظة حتى لا تختلط الأمور: فقد كان هناك مفكّرٌ آخرُ عُرِفَ باسم«السهروردي»، كشهاب الدين عمر السهروردي الملقَّب بأبي حفص الذي عاصر السهروردي المقتول، وكان من أقربائه، وهو صاحب الطريقة السهروردية، ومؤلف الكتاب المشهور«عوارف المعارف».

ابنُ طُفيل

(١١٠٦ – ١١٨٥)

طبيبٌ وفيلسوفٌ أندلسِيٌّ، ورجلُ دولة، اشتغل بالطب في مدينة غرناطة، وعَمِلَ بجانب الولاة في منصب «كاتب الأسرار»

قرأ أعمال الفلاسفة الإغريق، وأُعجب بفلسفة أرسطو.

تبَنّى فلسفة «الإشراقية» التي وضعها السهروردي.

يرى ابن طفيل أن الإنسان يستطيع معرفة الإله عن طريق التفكير والإحساس، كما يَعُدُّ العقلَ طريقة لاكتساب المعرفة إلى جانب الوحي.

كان قد كتب رواية فلسفية أسماها« حَيّ بن يقظان »كي يثبت أفكاره هذه. وتدور أحداث الراوية باختصار حول طفل يدعى «حَيّ» نشأ وحيدًا في جزيرة ولم يكن قد اكتسب أية معرفة من أحد، وبعد أن كَبُرَ بدأ يفكر حتى علم خالقه عن طريق الحدس والعقل.

تُرْجِمَ هذا الكتاب إلى اللّاتينية في القرن السابع عشر، ونال اهتمامًا كبيرًا.

انتبه إلى أن رواية «حَيّ بن يقظان» كانت قد كُتِبَتْ قبل قرون من رواية «روبنسون كروزو » التي ألفها «دانيال ديفو»!

ابن رشد

(١١٢٦ – ١١٩٨)

فيلسوفٌ أندلسِيٌّ. درس علم الكلام، والفقه، والأدب، والفلك، والطب، وعمل بصفته طبيبًا لقصر الحاكم. كما شغل منصب القاضي في قرطبة.

كان خبيرًا بمذهب أرسطو ومُحِبًّا له، حيث ترجم، وشرح الكثير من أعماله. انتقد كتاب «تهافت الفلاسفة» الذي كتبه الغزالي من أجل نقد تناقضات الفلسفة، وردّ عليه في مؤلف ذائع الصيت وهو»تهافت التهافت».

كان يَعُدُّ الفلسفة علمًا، وكان من الفلاسفة العقلانيين المؤمنين بالمذهب العقلي.

اعتمد على عقله في كتاباته المتعلقة بالعقيدة الإسلامية، وشرح العلوم النقلية بشكل يتَّفق مع فلسفته، لكن انتقده علماء مسلمون بسبب بعض أفكاره، كما تعرَّض لهجوم العامَّة من الشعب.

ولهذا جمع السلطان المنصور علماء قرطبة، وسألهم عن آرائهم حول ابن رشد، فرأوا أن جزءًا من أفكاره ضلالٌ، وجزءًا منها كفر!

وعليه سُجِنَ ابن رشد، وسُحِبَتْ منه ثروته، ليعيش حياة أقربَ إلى حياة المِنْفي، ويقضي سنواته الأخيرة بائسًا، ويموت على هذه الحال.

ألَّفَ كتبًا في مجالاتٍ كثيرة جاء في مقدمتها: الطب، والكلام، والفقه، والفلسفة، وتُرْجِمَتْ أعمالُهُ في مدّةٍ قصيرة للُّغتين العِبْريّة، واللَّاتينية

عُرِفَ باسم «Averroes» في العالم الغربي. قرأ الأوروبيون كتبه باهتمام. وأثرت أفكاره في حركات الإصلاح والنهضة.

لكن حُظِرَتْ أعمالُهُ في بعض الفترات بضغطٍ من الكنيسة، وعُوقِبَ المخالفون لهذا الحظر، فأعدم الفيلسوف الهولندي «هيرمان فون ريسويك» حرقًا لدفاعه عن أفكار ابن رشد!

نجد ابن رشد مخاطبًا أرسطو: لقد أحببتك كثيرًا، هل بإمكاني أن أناديك بأبي؟

فخر الدين الرازي

(١١٤٨ – ١٢٠٨)

عالمٌ إيرانِيّ، كان والده كذلك عالمًا كبيرًا، تعلّم علوم عصره مثل: الكلام والأدب، والفقه، والحديث، والتفسير، هذا إلى جانب تعلُّمه الرياضيات والكيمياء، والفلك، والطب.

كان عالمًا عظيمًا يُسْتقبل باهتمام أينما ذهب، كما حظى بمديح حكام زمانه.

أجرى دراساتٍ، وألَّف أعمالًا في مجالات الفيزياء، والكيمياء، والميكانيكا. وضع أفكارًا تتعلَّق بالصوت، والضوء، والقوة، والحركة ما زال معمولًا بها حتى يومنا هذا.

سجل اسمه بين أسماء الفلاسفة الكبار؛ بسبب تأثيراته الكبيرة على الفلسفة.

كانت له محاولاتٌ لشرح، ودمج المواضيع المتعلقة بالمعتقدات الشائعة في زمانه من خلال فلسفة أرسطو، وأفلاطون.

وإلى جانب «المدرسة المشّائية» وشبيهاتها من المدارس الفلسفية، كانت قد نشأت المذاهب التي تُقَدِّم العقل على النقل كالمعتزلة، وكانت أفكار الباطنية تزيد انتشارًا يومًا بعد يوم، فبدأ الرازي في مكافحة هذه الأفكار، ودخل في مناظراتٍ مع مفكّري المعتزلة، وسعى لهدم أفكار الباطنية.

كان الرازي منطقيًّا حاذقًا، وخطيبًا مُفَوَّهًا، فكان لكلامه وخطبه وقعٌ وتأثيرٌ لدرجة أنْ هدّده الباطنيون بالقتل، فوعدهم بألَّا يتكلَّم عنهم بسوءٍ؛ كي ينجو بنفسه.

ألف كتبًا في علوم الكلام، والفقه، والمنطق، والرياضيات. وأما كتابه «التفسير الكبير»، فقد كان مصدرًا للعديد من الأعمال التي تلته.

الثروة

سُئِلَ فيلسوفٌ: « لماذا أنت فقيرٌ لهذا الحَدّ برغم الثروة التي تحت قدميك؟»، فأجاب: « لأنِّي يجب عليَّ الانحناء لأخذها من على الأرض!».

عبد اللطيف البَغداديّ

(١١٦٢ - ١٢٣١)

حكيم وطبيب معروف، فيه من صفات المؤرخ، وبالرغم من أنه بغدادي، فإنه قضى معظم عمره في مدن الأناضول.

وصلت إلينا أعماله حول «الميتافيزيقا»، وعُرِفَ أيضًا بأعماله في مجال علم التشريح على وجه الخصوص.

ترجم كتابه «الإفادة والاعتبار» إلى اللغات الغربية عام 1788، وله كذلك عملٌ يتناول الحواسّ الخمس.

يُعَدُّ من الفلاسفة المستقلين، فلم يكن قد انضمّ إلى مدرسة ما، أو مذهبٍ معيّن. عُرِفَ بكونه فيلسوفًا ناقدًا وشكّاكًا.

كان الفارابي، وابن سينا، والغزالي هم أكثر من تأثّر بهم. وقد شرح كتاب «المنطق» الذي ألفه الفارابي.

عمل على إظهار نقاط الضعف في أفكار المفكّرَيْن السهروردي وابن ميمون.

ليس هناك معلومات كافية حول حياته. وبالرغم من انتقاداته المهمة، لم يكن لهذا الفيلسوف إسهاماتٌ تُذْكَرُ في تاريخ الفلسفة.

سعدي الشيرازي

(١٢١٣ - ١٢٩٢)

شاعرٌ، وصوفيٌّ، وحكيمٌ إيرانِيٌّ. قام برحلاتٍ طويلةٍ بعد أن تعلَّمَ علوم عصره الأساسية.

يُرْوَى أنه قضى ثُلثَ عمره في طلب العلم، وثلثه سائحًا طوّافًا، وثلثه في تأليف الكتب.

بعد أن أكمل رحلاته، وعاد إلى شيراز أراد أن يعيش حياة منعزلة، لكن أصحابه جعلوه يتراجع عن هذه الفكرة، ودَعَوْه للذهاب لروضة جميلة والموسم حينها الربيع، فتسامروا هناك حتى الصباح، فقرر هناك تأليف كتابه «كلستان». هيّا بنا نسمع له يروي علينا هذا الأمر:

«وإذْ بي أنظر لأرى صديقي، وقد ملأ طرف ردائه بالورد، وأزهار الريحان والياقوت، ويريد أن يصحبني إلى المدينة، فقلت له: تعلم أنت أيضًا أن الورد عمره قصير، فلا روضة تبقى ولا بستان، ويقول الحكماء لا تعلق قلبك بأشياءَ زائلة.

فسألني: حسنا، إذًا ماذا عسايَ أن أفعلَ، بماذا تنصحني؟

فقلت: سأؤلف كتابًا يداعب العين، ويشرح الصدر، ويحتضن الأرواح. سيكون عملًا لن تستطيع رياح الخريف أن تُذْبِلَ أوراقه، ولن يتمكن دوران الأرض أن يحوِّلَ صفاءَ ربيعه إلى حُزن الخريف. فبماذا تنفع حزمة من ورد؟ تعالَ

خذْ من بستاني ورقة، فعُمر الوردة خمسة أو ستة أيام، ولكن وردَ بستاني متفتّحٌ دائمًا لا يَذْبُلُ، ولا يموت.

لقد صدق الشيرازي وعده، وألَّف كتاب « كلستان » الذي جاء بمعنى:«روضة الزهور»، وبالفعل لم تَذْبُلْ أوراق هذا الكتاب أبدًا؛ فهو يحبّ، ويقرأ منذ ٧ قرون.

يركِّز هذا الكتاب على الإنسان، ويجمع بين الشعر والنثر، كما يحكي أسرار الحياة، ودقائق الأخلاق الكريمة في صورة قصص قصيرة.

ميزان العقل

سئل حكيم: كيف تفهم مستوى عقل المرء؟

فقال: من كلامه.

فقالوا: وإذا لم يتكلم أبدًا؟

فضحك وقال: ليس هناك إنسانٌ ذكِيٌّ لهذه الدرجة!

محيي الدين بن عربي

(١١٦٥ – ١٢٣٩)

عالمٌ ومفكّرٌ، ومتصوفٌ أندلسِيّ. أول أساتذته كانت امرأة، خرج في رحلات طويلة، ولاقى اهتمامًا من السلاطين الأتراك في السنوات الأخيرة من عمره.

كان يتمتَّع بشخصية كاريزمِيّة، واستمرّ تأثيرُهُ حتى يومنا هذا، كما كانت له أعمال كثيرة للغاية، فقد ألَّفَ كتابَيْنِ مشهورين معروفَيْنِ باسم:« الفتوحات المِكِّيَّة» ، و« فصوص الحكم ». وكتاباه هذان يصعب فهمهما، حتى أنه هو أيضًا يدرك ذلك، فيقول« لا يقرأ كتبي من لم يصل إلى مقامي»!

وقد خصص لموضوعات الفلسفة صفحاتٍ كثيرةً في أعماله، ودافع فيها عن « نظرية وحدة الوجود».

تُحَمّل بعض كتاباته بأفكار يمكن إساءة تفسيرها؛ ولهذا دار حوله كلام كثير وجدل واسع.

إن «نظرية وحدة الوجود» التي هي فكرته الأساسية، تقول: « لا موجود غير الله، وما عداه وهمٌ وخيالٌ». وتعتبر إحدى محطات السائحين الروحانيين. إنه مقامٌ مُبْهج، لكنه ناقص.

وقد ارتقى ابن عربي إلى ذلك المقام، لهذا فهو يرى نفسه وسائر الكائنات الأخرى، وكأنها غير موجودة، فيقول: «حتى وإن بَدَوْا كأنهم موجودين، ففي حقيقة الأمر ليس هناك شيءٌ أبدًا سواه، فهو جميع المخلوقات التي تبدو وكأنها منفصلة عنه».

يشبه هذا الكلام بمن يرى وردة في مرآة، فيقول «المرآة هي الوردة، ليس هناك مرآة، فليس هناك سوى الوردة».

ينتقد بعض العلماء كلامه هذا القائل إن:«الله هو كلّ شيءٍ»، ويقولون إنه بدلًا من ذلك عليه القول إن: «كلّ شيءٍ من الله»

لا يجب الخلط بين نظرية وحدة الوجود، أي «الأكبرية»، وبين الواحدية التي تعتبر الإله والكون شيئًا واحدًا، فالتشابه بينهما هو من ناحية الشكل، ففي الوقت الذي تَعُدّ فيه الواحدية أنه لا يوجد إلهٌ باسم الكون، فإن وحدة الوجود ترى أنه لا يوجد كون باسم الإله.

Telegram @t_pdf

صدر الدين القَوْنَوِيّ

(١٢١٠ - ١٢٧٤)

عالمٌ ومتصوف أناضولي من أصل تركي، كتب أعماله باللغة العربية، تربَّى وتتلمذ على يَدِ محيي الدين بن عربي الذي كان زوج أمه.

بعد موت معلمه انتقل من ملاطية إلى قونية، ومن هنا جاء تلقيبه بالقَوْنَوِيّ.

ساهمت أعمال القَوْنَوِيّ في تفسير أفضل لنظرية وحدة الوجود التي دافع عنها ابن عربي، لكنه لم يكتفِ بالنَّقل الجافّ، فأضاف شروحًا خاصة به خلال توضيحه لمفهوم وحدة الوجود.

كاتَبَ نصر الدين الطوسي، وتبادل الأفكار معه، وتجادلا في مختلف موضوعات الفلسفة.

كتب مقالاتٍ يمكن تلخيصها على النحو الآتي:

«لا يمكن معرفة الله عن طريق العقل، لا يمكن إدراك ذات الله أبدًا، ولا يمكن معرفة سوى صفاته، دلافع عنها بن العربيكون، داولنها غير موجودة. ومُحَالٌ أن يكون مجبرًا على الخلق، ذلك أن الله صاحب إرادة».

ما زالت كتبه تحتفظ بأهميتها حتى اليوم، لا سيّما أن الباحثين في مجال التصوف يرجعون إليها كمصدر لهم.

نصيرُ الدين الطَّوْسِيّ

(١٢٠١ - ١٢٧٤)

فيلسوفٌ خراسانِيٌّ وُلِدَ في مدينة «طَوْس» كان والده مُحِبًّا للعلم. تلقّى تعليمًا جَيّدًا، وتعلّم علوم الرياضيات، والفلك، والفلسفة. ينتمي لطائفة الشيعة الإسماعيلية، ويُعَدُّ من الفلاسفة المشّائين.

سُجِنَ في عهد العباسيين، وحين استولى «هولاكو» على تلك المناطق أطلق سراحه، وأخذه إلى جواره، وعندما فتحت بغداد بتشجيع من الطّوْسِيّ، وُضع سيخٌ معدنِيّ في عين الخليفة الذي أمر بسجنه!

بنى الطَّوْسِيّ مرصدًا فلكيًّا، ومكتبة في مراغة بدعم من الخاقان. كما جمع كبار علماء عصره، وظلَّ يعمل هو بنفسه في ذلك المرصد إلى أن وافته المنِيّة، سجَّل تقدُّمًا كبيرًا في مجالَيِ الفَلَكِ، والهندسة.

ألَّفَ أكثرَ من ستين كتابًا معظمها في مواضيع الفلك، والهندسة، والمعادن والأخلاق.

له كتاب شيِّقٌ، وممتعٌ يتحدث عن الأحجار الكريمة، والمعادن ترد به فصولٌ حول كيفيةِ علاجِ الأمراض بالأحجار الكريمة.

جَلالُ الدّينِ الرّومِيّ

(١٢٠٦ - ١٢٧٤)

متصوفٌ ومفكرٌ، وعالمٌ، وشاعرٌ. وَلِدَ في قونية. ولُقِّبَ «مولانا» يعني سيدنا. ولقد لُقِّبَ بالرّومِيّ؛ لأن أراضي الأناضول في ذلك الوقت كانت تسمَّى بـ»ديار الروم».

كان والده أيضًا عالمًا كبيرًا، تلقَّى جلال الدين على يديه العلوم الإسلامية، وبعد وفاته بدأ بمزاولة عمله، وإلقاء الدروس مكانه.

تعرف بعد ذلك على «شمس الدين التبريزي» الذي كان رجلًا جذَّابًا طيِّبًا، تأثّر به الرّومِيُّ كثيرًا، فدخل في طريق التصوّف، وبدأ يقرض الشعر مستغرقًا فيه بوَلَعٍ، وهوسٍ كبيريْن، وهكذا ظهر كتابه «المثْنَوِي» الذي حقق شهرة عالمية، فأفكاره ومواضيعه ذات صبغة عالمية.

أفرد أقسامًا من أعماله للفلسفة. ولكنه يحتقر، وينتقد التيارات الفلسفية التي لا تعتمد على الوحي.

يقول: « يبقى عقل الشخص المتمسك بالفلسفة متعلقًا بالأشياء التي يمكن إدراكها بالعقل».

يُعَدُّ مولانا شاعر الحب الإلهي، وطريقه هو طريق الحب والسلام، ولقد خاطب جميع الناس دون تمييز، ووصل صدى دعوته إلى كلّ أنحاء العالم.

ابن سبعين

(١٢١٧ – ١٢٦٩)

هو الآخر أندلسي، ابن حضارة أثَّرتْ في بلاد الغرب، وعلَّمتهم الكثير، يا لتلك الأندلس التي أنجبت الكثير من المفكرين!

كان رجلًا عجيبًا، حاول التوفيق بين الفلسفة والتصوف، وهاجم جميع الفلاسفة، فيما عدا الفارابي.

ألَّفَ كتابًا يحتوي على أجوبة للرَّدِّ على أسئلة طرحها ملك صقلية آنذاك، وكان ذا شخصية مريضة متكبِّرة تحتقر مَنْ حولها.

كان يعتقد بقوله: « يستطيع الإنسان أن يكون نبِيًّا ببذل بعض الجهد».

ذهب إلى مكة، واعتكف في غار حراء، وانتظر الوحي، لكنَّ المَلَك لم يأتِهِ ولم ينزل عليه وحْيٌ، وفي نهاية الأمر مات منتحرًا!

توما الأكويني

(١٢٢٥ – ١٢٧٤)

أحد أشهر فلاسفة السِّكولائِيَّة، وهو ابنٌ لعائلة إيطالية أرستقراطية، وعضو في مدرسة الرهبنة الدومينيكانية. وقد تعلم على يد « ألبرتوس ماغنوس» أحد أشهر رجال المدرسة الأرسطية آنذاك.

أولى توما أهمية لقوَّة الفهم، وكان يقول: «أعرف كي أصدق»، فمن وجهة نظره إن «المعرفة» كانت فقط إعدادًا للتصديق.

كان يهدف لمزج العقل مع النقل، والدين مع الفلسفة، ولقد نجح في هذا بنسبة كبيرة، وهكذا يكون قد وضع أساسَ الفلسفة السِّكولائِيّة، ولنَرَ كيف حدث ذلك.

كان أعضاء الكنيسة يعتقدون أن «مدرسة الرهبنة الدومينيكانية» تأثّرت بابن رشد، وأمثاله من الفلاسفة المسلمين؛ ولهذا كانوا ينظرون إلى أتباعها بعين الشَّكّ.

ولقد أقنع توما معارضيه، وأثبت لهم بالأدلة أن تأثير التيار الأرسطي لم يكن شيئًا سيِّئًا. ولإثبات وجود الإله، فإنه أدهشهم بتقديمه أدِلّةً لم تعرف حتى ذلك اليوم.

كان يقول إن هناك نوعين من علم اللَّاهوت، أولهما يشرحه الكتاب المقدس، وثانيهما موجودٌ في الكون والإنسان، وإنّ المرء يمكنه الوصول للحقيقة باستخدامه للعقل، والحواس.

تمسكت به الكنيسة، وجعلته قسِّيسًا، فأصبح القس توما، وسعد كلا الطرفين بهذه المصالحة، لكن كان هناك مَنْ لم يَسْعَدْ بهذه الخطوة، ألا وهم المفكرون الذين فُرِضَتْ قيودٌ على أفكارهم.

ومن هنا بدأت المحظورات، وأُسِّسَتْ محاكمُ التفتيش، وكان يعاقَبُ بشِدَّة مَنْ يطرحُ أفكارًا تخالف الأفكار الرسمية، وكانت أبرز هذه العقوبات هي حرق المتهم حيًّا!

كأنف برجراك:

كان ابن المقفع رجلًا ذا لسان ساخر وسليط، فقد كان يسخر من أنف والي البصرة كلّما سنحت له الفرصة؛ لأنَّ أنفَ الوالي كانت كبيرة جِدًّا، وكلّما قابله كان يقول: « السلام عليكما!»

ويروى أن مسألة أنف الوالي هذه كان لها دور في مقتله.

ابن خلدون

(١٣٣٢ - ١٤٠٦)

مؤرخٌ، وقانونِيٌّ مسلمٌ تونسيٌّ، يُعَدُّ مؤسسَ علم الاجتماع، الذي كان يسمَّى بـ»علم العمران» قديمًا. بالإضافة إلى أنه رجلُ دولةٍ عَمِلَ كاتبًا في القصر، ولكنه وقع ضحيةً للافتراءات، وزُجَّ به في السجن.

بعد خروجه من السجن سافر إلى الأندلس أوَّلًا، وبعدها إلى مصر التي خلال تواجده بها عَمِلَ قاضيًا، وأستاذًا. وقد قضى السنين الأخيرة من حياته في مصر، وتُوُفِّيَ في القاهرة.

كان عالمًا، ومفكِّرًا كبيرًا، درس الأدب الإسلامي، والفلسفة اليونانية. لخَّص بعض أعمال الفلاسفة مثل: فخر الدين الرازي، وابن رشد، كما كتب رسائل في مجالَيِ الرياضيات والمنطق.

بحث خلال رحلاته أوضاعَ المجتمع الثقافية، والجغرافية، والاقتصادية والاجتماعية، واهتمَّ بالملاحظة، والرصد، وشرح دور العوامل الداخلية في الأحداث التاريخية.

ومن هنا ألَّف كتابه الضخم «كتاب العِبَر» استنادًا إلى تجاربه وخبراته. واشتهرت «المقدمة»، التي كانت جزءًا من هذا العمل الضخم، واعتُبِرَتْ عملًا منفصلًا، وتُرْجِمَتْ إلى اللّاتينية، وأثَّرت بقدر كبير في عالم الفكر الغربي واستُخْدِمَتْ كمصدر، ومرجع في الدراسات، والأبحاث العلمية.

نيكولاس كوبرنيكوس
(١٤٧٣ – ١٥٤٣)

كان عالمًا بولندِيًّا تُوُفِّيَ والده، وهو لا يزال في سِنّ العاشرة، فتولَّى عمّه تربيته، وكان رجلَ دينٍ معروفًا. تلقَّى تعليمًا جيّدًا بالنسبة للحِقْبَةِ التي عاش فيها.

درس إلى جانب العلوم الدينية الفَلَك، والطِّبَّ، والقانون. عَمِلَ قسّيسًا لمدّة بعد تخرّجه في الجامعة، لكنه كان يهوى علم الفلك، وخلال دراسته الجامعية في إيطاليا تعرف على علماء الفلك، وتأثّر بهم، فبدأ أبحاثه في علم الفلك بوَلَعٍ كبير، وواصل جهودَه هذه حتى آخر حياته.

هو القائل إن: « الأرض تدور حول نفسها، وحول الشمس أيضًا»، وكان في السابق يُعْتَقَدُ أن الأرض هي مركز الكون، فنفى كوبرنيك هذا وقال: «الشمس في المركز، والأرض تدور حولها، كما تدور حول نفسها».

بيد أنه كان هناك من طرح هذه الفكرة من قبل، لكنهم فشلوا في إقناع أحد بها.

ألف كوبرنيك كتابًا شرح به نظريته بالتفصيل، ونُشِرَ الكتابُ عام 1543. لكنه لم يلقَ قبولًا لدى دوائر الكنيسة؛ لأنه تغافل، وأورد فيه أفكارًا جاءت معاكسة تمامًا للأفكار الرسمية.

وعلى الأرجح، فقد قالوا: « هذا عيب يا كوبرنيك، فضلًا عن أنك كنت قسّيسًا في وقتٍ من الأوقات، فهل يُفعل هذا بنا؟»!

فحظروه مبرّرين ذلك بقولهم: « إنك تتحرك بما يخالف الإنجيل»، وقد استمر هذا الحظر حتى عام 1882.

نيكولو مكيافيلي

(١٤٦٩ – ١٥٢٧)

وُلِدَ في فلورنسا، وهو مفكّرٌ، ورجلُ دولةٍ، وخبيرٌ في الاستراتيجيات العسكرية، وشاعرٌ، وكاتبٌ مسرحِيٌّ أيضًا.

يُعَدُّ أحد الشخصيات التي لعبت دورًا مهمًّا في حركة النهضة في إيطاليا، حيث بذل كلَّ جهودِهِ من أجل وحدة إيطاليا، وكان مِمَّن وضعوا أسس علم السياسة. كما تناول في كتابه «الأمير» طرق السيطرة على الحكم، والمحافظة عليه، لكنه لم يهتمّ بالمخاوف الدينية، والأخلاقية، وهو يكتب هذا الكتاب الذي نفع الحكام الطغاة على وجه الخصوص.

تعرّض للنقد بسبب مقولته: «الغاية تبرر الوسيلة، وكلّ شيءٍ مُبَاحٌ من أجل الوصول للهدف»، وصار اسمه مقترنًا بهذه المقولة، وأطلق لفظ «المكيافيلّية» على هذا النوع من التّصرُّف.

إن الأفكار التي عَبّرَ عنها مكيافيلّي كان قد كتبها الكاتب « ابن ظفر الصّقلِّيّ» في كتابه «الأمير» قبل حوالي ثلاثة قرون، فهناك تشابهٌ كبيرٌ بين هذين الكتابين.

مارتن لوثر

(١٤٨٣ - ١٥٤٦)

لوثر هو رجل دين ألماني نشأ في الريف. درس الحقوق، واتّبع طريقة الرهبنة للقديس «أغسطينوس»، عمل قسيسًا، وأصبح أستاذًا في اللّاهوت.

كان يَعُدُّ الإنجيلَ أهمّ من سلطة الكنيسة. عارض غفران البابا للخطايا مقابل المال. وقال: إنه وجد بعض ممارسات الكنيسة غير مفهومة، وكان هذا ذنبًا لا يُغفر.

فقالوا له: « تراجع عن كلامك هذا»، لكنه لم يفعل، فنُبِذَ، واستدعته الكنيسة للإدلاء بأقواله، لكنّ لوثرَ لم يذهب، وهكذا بدأ صراعه مع مؤسسة البابوية. تمرَّد على الكنيسة الكاثوليكية، وأصدر بيانًا، وأسَّس نظامًا لمذهبه.

ترجم نصوص الإنجيل إلى الألمانية، وكانت هذه أوَّل مرّة يُتَرْجم فيها الإنجيل إلى إحدى اللغات المتحدث بها.

قال إنه: « يجب على القساوسة أن يتزوَّجوا »، فتزوج، وكانت زوجته راهبة سابقة.

انتشرت آراؤه الإصلاحية يومًا بعد يوم، فظهرت اضطرابات كثيرة، وحدث التمرُّد، وسالت الدماء، وفي النهاية، قلَّ تأثير الكنيسة الكاثوليكية، وانتشرت أفكار لوثر في ألمانيا، ومن بعدها نشأت الكنائس البروتستانتية، وانتشر مذهبها حتى وصل إلى أراضي إنجلترا.

ممّا أدّى أيضًا إلى ظهور الكنيسة الإنجليكية، ومن هناك اتّخذ هذا المذهب طريقه إلى أمريكا.

يقول لوثر إن: « الإنسانية تستطيع تجاوز الأزمات بالإيمان، وليس بالعقل». واشتهرت مقولته التي تقول: « إلهك هو ما يرتبط به قلبك».

ملحوظة صغيرة: ألَّف لوثر كتابًا يقول فيه إنه: يجب على كلّ مسيحِيٍّ محاربة الأتراك في سبيل حماية الحضارة الغربية من خطر الإسلام، وله كتاب آخر يُعادي فيه اليهود.

جوردانو برونو

(١٥٤٨ – ١٦٠٠)

مفكِّرٌ، وعالِمٌ، وشاعرٌ، إيطالِيٌّ. كان أحد المعتقِدينَ بشكلٍ ما بوحدة الوجود. كما كان معجبًا بعمل الكون، حيث تأخذه الحماسة لاستكشاف، وتأمُّل الطبيعة وكأنها عملٌ فنِّيّ. يُعَدُّ أحد أتباع مدرسة الرهبنة الدومينيكانية، واتّجه لاحقًا للعلم والفلسفة.

تعرَّف إلى «جاليليو جاليلي» الذي حوكم بسبب قوله إن الأرض تدور في فَلَكٍ، وبدأ يشرحُ أفكاره دون خوف.

كان يزدري الدين الذي تستخدمه الكنيسة كوسيلة للقمع، فهو يرى أن هذا الدين من أجل الجهلة! أما الفلسفة، فهي للصفوة المتميزين، وهي آراء مخالفة للكنيسة.

اتُّهِمَ بالإلحاد، واضطرَّ لمغادرة وطنه نتيجةً للضغط الواقع عليه. أقام لفترة في فرنسا، وعمل أستاذًا في جامعة السوربون. تمَّتْ ملاحقته، والقبض عليه وتسليمه لمحاكم التفتيش، حيث حوكم في محكمة غير عادلة، وبالرغم من تعرّضه لجميع أنواع التعذيب، فإنه لم يتراجع عن أفكاره.

كان رجلًا قويَّ الشخصية، فحتى عندما اقتادوه لتنفيذ حكم حرق جسده ظل ثابتًا، ولم يفقد صلابته، وقبل إشعال النار به، مَدُّوا له الصليب ليقبّله، لكنه

دفعه بيده، ورفض تقبيله، واستدار نحو القضاة قائلًا: «لا أخشى الموت، لكنكم تحملون خوفًا أكبرَ من خوفي بكثير؛ لأنكم حكمتم عليَّ هذا الحكم!»

أعدم حرقًا، وهو حَيٌّ في روما بساحة «كامبو دي فيوري»، وتعطينا كلماته التالية إشارة حول شخصيته القوية:

«لا أحب إخفاء الحقيقة التي أراها، ولا أخاف من قولها صراحة. لقد شاركت في كل مكان في المعركة القائمة بين النور والظلام، بين العلم والجهل؛ ولهذا واجهت الصعوبات في كل مكان، وأصبحت هدفًا لغضب معظم الحمقى من الأكاديميين الرسميين، والأغبياء.».

توماسو كامبانيلا

(١٥٦٨ – ١٦٣٩)

فيلسوفٌ إيطاليٌّ مشهورٌ بتأمُّلاتِهِ، ودراساتِهِ للطبيعة. يؤمن بالبحث التجريبي؛ إذ يرى أن هذا هو الطريق الصحيح لاكتساب المعرفة.

يقول إنه : « إذا كان الكتاب المقدس هو الطريق الأول لمعرفة الإله، فإن الطريق الآخر هو تأمُّل الطبيعة، كما يقول أيضًا: «الطبيعة هي تمثال الإله أو انعكاسُهُ، أو مرآتُهُ».

يبني كامبانيلا مدينة فاضلة في كتابه «مدينة الشمس» الذي يتناول فيه نظامًا مجتمعيًّا فاضلًا، وهكذا يستكمل تقليد المدينة الفاضلة الذي أطلقه أفلاطون. وبسبب هذا الكتاب يَعُدُّه بعض الباحثين الماركسيين أحد روّاد الماركسية في فترتها المبكرة.

والمدينة الفاضلة (الطوباوية) هي تصميمٌ يصوّر نظامًا اجتماعِيًّا، أو إدارة فاضلة، أما «الطوباوي»، فهو الوصف الذي يطلَقُ على الأشخاص الذين لا يكتفون بتخيُّل هذا المجتمع الفاضل، بل يسعون لتحقيقه أيضًا.

رينيه ديكارت

(١٥٩٦ - ١٦٥٠)

ديكارت هو عالم رياضي فرنسي يُعَدُّ أبا للهندسة التحليلية.

هو مَنْ قال: « الفلسفة كشجرة، جذروها الميتافيزيقا، وجذعها الفيزياء، أما أغصانها، فهي جميع العلوم الأخرى».

درس في المدرسة اليَسُوعيّة، ثم درس الحقوق، وأدَّى الخدمة العسكرية، وعاش خارج فرنسا.

يُعَدُّ مؤسسَ «الفلسفة الحديثة «، وبالرغم من كونه مسيحِيًّا متديّنًا، فإنه انتقد الفلسفة السِّكولائِيّة وهدمها.

يُعَدُّ ديكارت حجرَ أساسِ «الفلسفة الديكارتية»، أي طريقة التفكير الواقعية العقلية، والتجريبية، كما يُعَدُّ أحدَ أشهر فلاسفة مذهب العقلانية، أي أنه عقلاني.

كان أحد الشكَّاكين المنهجيين، وكان يفكر مثل الشكّاك مجبرًا نفسِهِ على ذلك.

وفي سبيل الوصول بمفرده إلى المعرفة الصحيحة طرح سؤالًا قال فيه: «هل أنا حقًّا موجود؟»، بعدها أجاب على نفسه « أنا أفكر، إذًا أنا موجود»، لقد كان محقًّا؛ فإذا لم يكن موجودًا لما استطاع التفكير.

كان يؤمن بالرَّبّ، ويحاول إثبات وجوده بالأدلة.

انتهج ديكارت منطقًا يمكن تلخيصه كالتالي:

« توجد فكرة الكمال لدى إنسان، وهذه الفكرة لا تتولَّد منه؛ لأنه كائنٌ ناقص. وما دام أنه يحمل هذه الفكرة، فهذا يعني أنها قادمة من كائن كامل، ألا وهو الرّبّ».

من المحتمل أنه لم يتزوج بسبب بِنْيَتِهِ الضعيفة، أو ربَّما لم يجد الوقت الكافي؛ لأنه كان يسعى وراء هدف كبير مثل إعادة صياغة العلوم. تُوُفِّيَ بالالتهاب الرئويّ.

من كلماته الجديرة بالذكر: « من يعمل دون خطة كمن يبحث عن كنز دون خريطة».

فرانسيس بيكون

(١٥٦١ – ١٦٢٦)

فيلسوفٌ إنجليزيٌّ كان أحد العزَّاب المتشددين الذين كانوا يهاجمون الزواج بشِدَّة. كان يقول على سبيل المثال: « يُعَدُّ الرجل المتزوج قد شاخ بمقدار سبع سنين منذ اليوم الأول لزواجه»!

كان رجلَ سياسة. مُنِحَ لقبَ «Sir» في عصر الملك جيمس. وقد عمل قاضيًا ونائبًا عامًّا.

فُصِلَ من وظيفته بتهمة الرشوة، وحوكم وأدين ليسجن لفترة، ومن بعدها سقط من عين الدولة، لينقطع بعد ذلك عن السياسة ويصير فيلسوفًا. تناول أفكاره بأسلوب «التجريب».

عارض فلسفة المدرسة السِّكولائِيّة، وأرسى دعائم الفلسفة التجريبية الإنجليزية، ويُعَدُّ أبَ التجريبية العلمية.

يُعَدُّ بيكون من أعلام الفلسفة في العصر الحديث، حيث يميل للمادية والآلية، ويقترب من الفلسفة الوضعية في بعض كتاباته.

يقول إنه: « يجب أن يعود العلم للطبيعة»، يجب دراسة الأحداث كلٍّ على حدة، ومن ثمَّ الوصول إلى نتيجة، أي يجب استخدام منهج الاستقراء.

يرى بيكون أن على الفلسفة أن تنهي المناقشات حول الإله، وأن تضع مسائل الأخلاق جانبًا!

ومن كلماته البليغة: « مستحيل أن يكون الإنسان بطلًا دائمًا، لكن يمكن أن يكون إنسانًا في كلِّ وقت».

انتظروا، علينا ألَّا نخلط بين بيكون هذا، و»روجر بيكون»، وهو فيلسوف إنجليزي أيضًا معروف باهتمامه بالمنهج التجريبي، فقد قال كلامًا مشابهًا قبل «فرانسيس بيكون» بقرنين من الزمان.

لماذا الصمت؟

كان هناك حكيم دائمًا ما يجلس على مائدة الملك دون أن يتحدث أبدًا.

فسألوه: لماذا يجلس هكذا في صمت، فردَّ عليهم بقوله:

« هنا ليس مكانَ ما سأقوله، ولا أعلم أنا أيضًا ماذا يجب أن يقال هنا، ولهذا أصمت».

توماس هوبز

(١٥٨٨ – ١٦٧٩)

إنجليزيٌّ تخرّجَ في جامعة أكسفورد، وهو فيلسوف مادِّيّ آليّ، هو مَنْ خاطب الفلاسفة قائلًا: « دعوكم من الموضوعات المتعلقة بالإله، والروح والميتافيزيقا، واهتمُّوا بالموادّ والأجسام»!

كان يقول إن: « الحياة على وجه الأرض مليئة بالوحدة، والدَّنَس والهمجية، فضلًا عن أنها قصيرةٌ جِدًّا»، لكنه عاش عمرًا طويلًا جِدًّا، ويمكن اعتبار حياته كانت سعيدة.

كان يثق بالملاحظة والتجريب، وسعى لتفسير كلِّ شيءٍ، حتى المشاعر، من خلال قوانين الحركة، وكان يرى أن الأهَمّ هو تخمينُ الظواهر الطبيعية قبل حدوثها.

قسَّم الأجسام إلى قسمين: الأجسام الطبيعية والأجسام الصناعية.

الدولة هي أكبر الأجسام الصناعية. وفي رأيه أن الإنسانَ أنانِيٌّ يفكر بمصلحته وحسب، لهذا كان يتقاتل مع الآخرين، فكان يقول: « فالإنسان عدو الإنسان»، ولو ترك البشر لحالهم لأكل بعضهم بعضًا، كان يجب أن تكون هناك مؤسسة تضبط سلوكيات الناس كافة، فنشأت الدولة تلبيةً لهذه الحاجة، فما ينفع الدولة صالح، وما يضرّها طالح، وكان «هوبز» مِمَّنْ قدّسوا الدولة.

لو نظرنا إلى عبارته القائلة: « وقت الفراغ هو أم الفلسفة»، سنجد أن وقت فراغه كان كثيرًا.

باروخ سبينوزا

(١٦٣٢- ١٦٧٧)

هو ابنٌ لأبٍ وأمٍّ من أصل يهودي هاجرا من البرتغال إلى هولندا.

يتبع الطريقة العقلانية، وكان قد تفوّه بكلام لم يعجب الحاخامات؛ ولهذا طُرِدَ من قِبَلِ الكنيس اليهودي في أمستردام، وحاول بعضهم قتله، لكنه نجا من ذلك.

كان رجلًا صاحب مبدأ، سعى للعيش بشكل يتوافق مع فلسفته، فكان يرفض فورًا العروض المخالفة لأفكاره مهما كانت جذَّابة.

يرى سبينوزا أنه لا يوجد سوى جوهر واحد: الإله، فهو الجوهر الكامل، القادر الذي لا يحتاج لغيره. هو سبب ذاته، والسبب الحقيقي لجميع الموجودات. المادة ، والروح كَوَجْهَيْهِ، فالإله هو نفسه الكون. وهو فكر نمطي ينتمي للمدرسة الوجودية.

لقد خلق الإله جميع الخلائق وِفْقَ نظامٍ مُحَدَّدٍ مُحْكَم. لا يمكن أن تكون هناك إرادةٌ حرةٌ للإنسان، والحرية المتحدث عنها هنا تعني معرفة الخصائص الموجود في طبيعتنا، والتصرف بناء عليها.

كان « سبينوزا» من الذين طرحوا أسئلة صعبة، فقال على سبيل المثال: «فلنفترض أنني حُرٌّ في فعل ما أفعله، فهل يا ترى أنا كذلك حُرٌّ في إرادة ما أريده؟».

بليز باسكال

(١٦٢٣ - ١٦٦٢)

فيزيائيٌّ، وعالمُ رياضياتٍ، وكاتبٌ فرنسيٌّ تمتّع بذكاءٍ فائقٍ، بينما كان لا يزال في السادسة عشرة من عمره ألّف أعمالًا تجريبية في الرياضيات. كما صمَّم الآلة الحاسبة حين كان في التاسعة عشرة. ووضع قوانين في مجال الفيزياء.

بعد أنْ مَرّ بأزمةٍ نفسيّةٍ شديدةٍ، وقد كانت أزمة فكرية، فلم يكن العلم يرضيه، فجرب أوَّلًا أن يعيشَ حياةَ الملَذَّات، والتّرف.

ممَّا قاله: «من الممكن استخدام الرياضيات في ألعاب الحظ، ومن ثمّ تزيد احتمالية التخمين تخمينات صحيحة»، فنال شهرة واسعة بين المقامرين!

لكن هذه الحياة لم ترضِهِ؛ فاتّجه نحو الدين بعدما لم يجد دواءً لدائِهِ في عالم الفجور، فطرح أفكارًا لا تتّفق مع معتقدات الكنيسة، ودخل في جدالات مع القساوسة. كما أنه دوّن أفكاره على شكل رسائلَ قصيرةٍ كانت عبارة عن نصوص ذات معني، ومختصرة إلى حَدٍّ كبير، حيث نُشرتْ باسم «Pensees»، وكانت رائجة بين القراء، كما تُرْجِمَتْ إلى كل اللغات الكبرى.

جون لوك

(١٦٣٢ - ١٧٠٤)

فيلسوفٌ إنجليزيٌّ، تخرّج في جامعة أكسفورد، وهو من رواد العصر المعروف بعصر «التنوير».

قرَّر دراسة الطب بعدما احتار بين الفلسفة والفيزياء، دخل أيضًا عالم السياسة لمدة من الزمن، وكتب أعمالًا في مجالات سياسية واجتماعية.

ولعب دورًا كبيرًا في رسم ملامح الديمقراطية الإنجليزية.

أثّر تأثيرًا عميقًا في بعض الفلاسفة الفرنسيين، كما استلهم الأمريكيون كذلك من أفكاره، ويمكننا القول إنه كان المرشد الروحي للدستور الأمريكي.

كان لوك مثل رمز الليبرالية، حيث كان يؤيد المساواة، لكنه كان يبرِّر وجود مؤسسة العبودية؛ لأنه كان يعمل بمؤسسة تعمل بتجارة العبيد، وكان يكسب الأموال من وراء العبيد.

كانت نظريته للمعرفة تعتمد على المذهب الحسِّيّ، وقال إن كل أنواع المعرفة تأتي عن طريق الحواس، والتجارب.

عارض مبدأ المعرفة الفطرية، وفكرة أن يولد العقل البشري بمجموعة مبادئ ومفاهيم.

طوّر نظرية المعرفة الاستدلالية، حيث اشتُهر بتشبيه «اللوح الفارغ» الذي يعني عدم وجود معرفة مسبقة أبدًا في عقل الإنسان لحظة ولادته ليكون عقله كاللوح الفارغ.

من أقواله المشهورة:

« إن المسؤولية الواقعة على عاتق الإنسان ليست معرفة كلّ شيءٍ، بل معرفة المسائل التي تخصّ سلوكياتنا وحياتنا العملية، وإن مهاراتنا كافية لاكتساب هذه المعرفة».

الزيارة:

سأل الملك دينيس الحكيمَ أريستبوس:

« لماذا يا ترى يزور الفلاسفة الأغنياء ولا يذهب أيُّ غنِيٍّ لزيارة فيلسوف؟»

فأجابه أريستبوس:

« ليس هناك شيءٌ عجيبٌ في هذا؛ لأن الفلاسفة يعلمون ما لا يمتلكون، أما الأغنياء، فيجهلون ما لا يمتلكون».

جوتفريد

لايبنتز (١٦٤٦ – ١٧١٦)

فيلسوفٌ ألمانيٌّ، اشتغل بالفلسفة، والأحياء، والجيولوجيا، والتاريخ واللَّاهوت، والقانون، والرياضيات، والدبلوماسية. صمّم هو أيضًا آلة حاسبة مثل باسكال. يَعُدُّه بعض مؤرخي الفلسفة « الرجل الأذكى في عصره».

وضع مصطلح « Monad» (وهي كلمة يونانية تعني الذرات) يرى أن الكون يحوي عددًا لا حصر له من الجواهر التي هي مواد أساسية تشبه الذرات، لكنها لا تشبه بعضها بعضًا، وليست مجرَّدةً، ولا مادِّيَّة بالمعنى الحرفي. هي مواد حية لها مشاعر، كما أنها ذات مراحل في أسفلها توجد المادة، وفي أعلاها يوجد الإله.

الإله هو الذي يحدد التناغم الذي في الكون. هذا هو « التناغم المكون مسبقًا». له وجهة نظر تقول إن: « الإله خلق أفضل العوالم الممكنة». ينتسب لايبنتز للتيار المثالي، لكنه لم يغالِ فيه.

لم يتزوج لايبنتز أبدًا، فلدينا الكثير من الفلاسفة العزَّاب في تاريخ الفلسفة، ليشعر المرء، وكأنَّ هناك صلةً بين الفلسفة والعزوبية، فهل يا ترى يصيرون فلاسفة؛ لأنهم لم يتزوجوا؟ أم أنهم لا يتزوجون؛ لأنهم فلاسفة؟ القرار لكم.

جورج بيركلي

(١٦٨٥ - ١٧٥٣)

مفكر، وأسقف، وأستاذ للُّغتين اليونانية، والعِبْرية من إيرلندا. عمل مديرًا في مدرسة القساوسة، وكان مبشّرًا مؤثّرًا. كانت فلسفته تستند إلى المثالية. طرح أفكارًا معاكسة تمامًا لما تقوله الفلسفة المادية. كانت إحداها إفراطًا، والأخرى تفريطًا، بيد أننا بحاجة إلى شيء وسط.

نظر بيركلي ذات يوم من النافذة باتِّجاه الحديقة، فرأى الطيور والأزهار والأوراق، وسأل نفسه: «هل هذه موجودة حقًّا؟»، ففكر وقال: « إنها موجودة بوجودي، فلو كنت غير موجود، فهذا يعني أن لا وجود للمفعول دون وجود الفاعل، ممّا يعني أنه لا حقيقة لوجودهم».

قال: إن الكائنات التي نراها حولنا هي مجرد «أفكارنا»، ووصل إلى نتيجة نهائية مفادها أن: « الشيء الوحيد الموجود حقًّا هو الروح والفكر»، كما كان يقول: « لا يوجد بين أيدينا سوى الأفكار، ولا يمكننا معرفة ماهية الأشياء».

قال ذات يوم «إذا كنت أدرك شيئًا ما، فهذا يعني أنه موجود»، فاعترض أحدهم قائلًا: « ألا يكون هذا الشيء موجودًا ما دمت لم تدركه؟، فكان ردُّه: «لا، بل تكون موجودة، فالإله يدرك دائمًا وجود كلّ شيء، وهو ما يحول دون فنائها، ويُبْقِي على وجودها».

ديفيد هيوم

(١٧١١ – ١٧٧٦)

مؤرِّخ إسكتلندي دوّن تاريخ بريطانيا. وعمل تاجرًا لمدة، ثم اشتغل مديرًا لمكتبة.

اشتُهر بانتقاده مبدأ السببية، فماذا يعني هذا؟ وفق مبدأ السببية، فإن كل نتيجة تكون لسبب ما، فالأسباب المحددة دائمًا ما تؤدِّي إلى نتائجَ محددة، وهذا ما اعترض عليه هيوم، وقال باختصار إن: «الإنسان هو الذي يبني علاقة سبب – نتيجة بين حدثين أو شيئين، وتفكيرنا بهذه الطريقة يُعَدُّ ظاهرة إيمانية، ولا يعني أن هذه هي الحقيقة»، ولقد وضع الاحتمالات كذلك في الحسبان، وقال: « ليس لدينا معرفة مسبقة عن هذا الموضوع لنثق بها، كما أن التجارب لا تضمن لنا اليقين؛ ذلك أن وقوع حدثين، أو حالتين، أو شيئين بشكلٍ متتالٍ لا يعني أنهما سبب ونتيجة بعضهما بعضًا. إلخ».

ربما لم تَرِد هذه الفكرة، التي تتضمّن رفض طريقة الاستقراء، على بال أحد من ذي قبل، أو لعلّها كانت قد وردت لكن صاحبها لم يفصح عنها، وكانت هذه الفكرة بمثابة المطرقة التي نزلت على أساس العلوم، ولا شكّ في أن مَنْ سمعها قال: «هذا لا يُعقل، ماذا سنرى بعد ذلك؟!».

كوندياك

(١٧١٥ - ١٧٨٠)

فيلسوفٌ فرنسيٌّ، وعضوُ الأكاديمية الفرنسية، عاش خلال الفترة التي أطلق عليها بعض مؤرخي الفلسفة «عصر التنوير». كان أقرب أصدقائه كاتب الموسوعات الفرنسي «دنيس ديدرو». كان «كوندياك» من فلاسفة المذهب الحسّي؛ إذ يرى أن الحواسَّ هي مصدر المعرفة، أي أنها تُكتسب عن طريق الحواس.

يقول: إن إحساس الإنسان، وحدسه، وإدراكه، وتفكيره دائمًا بتأثير حواسه، وإن الأفكار عبارةٌ عن أحاسيسَ غيَّرت أشكالها، سعى لإثبات أفكاره هذه في كتابه: «مبحثٌ في الأحاسيس»، وقد شرح فلسفته مستدِلًّا بمثال التمثال.

كان هو واضع الفكرة التي تقول إن: « الرغبة هي ذِكر العقل لمشاعر المتعة التي شعر بها الإنسان».

فولتير

(١٦٩٤ – ١٧٧٨)

فيلسوفٌ فرنسيٌّ. اسمه الحقيقي «فرانسوا ماري أرويه»، لكنه استخدم اسمه المستعار «فولتير» وكان والده كاتبَ عدلٍ غنيًّا.

كان فولتير من أسرة ميسورة الحال، وكانت علاقته جيدة بالطبقة الراقية. بالنهار يكون وسط بيئة لطيفة مهذّبة، وفي الليل يتحول إلى رجل مستذئب! يتسكع، ويلهو مع المتشردين حتى وقتٍ متأخر، وكان أحيانًا يدخل في شجاراتٍ، فيوسعه أحد البلطجية ضربًا ليعود بعدها إلى بيته وتبدو على وجهه آثار الضرب.

تورَّط، ودخل في مشكلات لفترة بسبب أفكاره المغايرة ليدخل السجن ويضطر لمغادرة وطنه الذي عاد إليه بعد فترة تحت حماية بعض النبلاء.

كتب أعمالًا في مجالاتِ التجارب، والشعر، والمسرح، والقصص والحكايات، والروايات، والنقد، وكان له آراء في كلّ المجالات تقريبًا، اتّسمت أفكاره بالسطحية، فهي خالية من العُمْق، لكنها شملت مجالات واسعة.

كان واحدًا من كُتَّاب الموسوعات، ولم تكن له فلسفة منهجية. قرأ مؤلفات «جون لوك» خلال فترة إقامته في إنجلترا، وتأثَّر بها.

شرع في تدوين أفكاره عند عودته إلى فرنسا، وكان ملحدًا، ودخل في صراع مع الدين المسيحي.

صار رجلًا متناقضًا؛ فكان يمدح الصدق والاستقامة من جهة، ومن جهة أخرى كان قادرًا على التصرف بنفاق!

رُشّحَ ليكونَ عضوًا في الأكاديمية الفرنسية، ووجب عليه أن يحصل على الدعم ليتمكن من النجاح في الانتخابات، فذهب أوَّلًا إلى الكاثوليك وأساء أمامهم لليسوعيين، ثم ذهب لليسوعيين، وأساء للكاثوليك أمامهم! الآن فقط تدرك كم كان قادرًا على التلبيس والنفاق!

من مقولاته الشهيرة: «لا أقبل أيًّا من كلامكم، لكنني سأضحِّي بروحي كي تقولوه بحرية».

أصحاب الموسوعات

يشير التاريخ إلى القرن السابع عشر،حيث التقى بعض الفلاسفة، والكُتَّاب، والأكاديميين الذين يحملون أفكارًا متشابهة، وبدؤوا في كتابة موسوعة، فأطْلِقَ عليهم وصف «الموسوعيين».

كان أشهرهم فولتير، وديدرو، وروسو، ومونتسيكو، غير أن روسو انفصل عنهم لاحقًا.

أطلق هؤلاء الفلاسفة على أنفسهم لقب «المستنيرين»، وكان هدفهم المشترك هو استئصال شأفة الدين!

لم يؤمنوا بالنبي والوحي والآخرة، كانوا بوجه عام ربوبيين، فمن هو الربوبي؟ هو شخص ينكر وجود الدين، والوحي، والنبي، والآخرة مع أنه لا ينكر وجود الإله، وهو المتكبر الذي يقول: «يكفيني عقلي، فما الداعي لوجود نبي!»، نعم آمن بعضهم بوجود إله، لكنه كان إلهًا معنويًّا، إلهًا من وحي الخيال لا يحمِّلُ أحدًا مسؤولية، وليس له أوامرُ، ولا نواهٍ.

ما رأيك؟ هل يمكن أن تكون التفسيرات المتناقضة مع العقيدة السليمة لآباء الكنيسة المتحدثين « باسم الدين» هي التي جرّت بعض المفكرين إلى هاوية الإلحاد؟

مونتسيكو

(١٦٨٩ – ١٧٥٥)

شارل لوي دي سيكوندا مونتسيكو. البارون مونتسيكو. هو مفكر، وقانوني، وعالم اجتماع، وسياسة فرنسي كان قد شرح أفكاره في كتابيه: « رسائل فارسية»، و»روح القوانين».

كان يقول: « ينبغي أن يكون لدينا نحن أيضًا ملكية دستورِيَّة كما في بريطانيا، فإذا كان هذا موجودًا لدي جيراننا، فلِمَ لا نمتلكه نحن أيضًا؟ إنه ظلم بيّن!» كان مهتمًّا بخصائص المناخ، والتربة في تحديد شكل إدارة المجتمعات.

يمكن تلخيص ما قاله في العبارات التالية:

«بالنسبة للأماكن ذات المناخ الحار، فلا يناسبها سوى النظام الاستبدادي القائم على الخوف، وأمَّا البلاد ذات المساحة المتوسطة، والحرارة المعتدلة، فيجب أنها تدار بالنظام الملكي القائم على المجد والشرف، بينما البلاد الصغيرة ذات المناخ البارد، فلا يصلح لها سوى الديمقراطية».

ولمونتسيكو أيضًا كلام حكيم نتج عن تجاربه في الحياة:

«من أجل تفادي إساءة استغلال السلطة، يجب أن يكون للحكومة نظامٌ يُقيّد السلطة».

«لو كانت المصلحة التي يوفّرها التملُّق أكثر من المصلحة التي يضمنها الصدق في بلد ما، فإنَّ ذلك البلد محكومٌ عليه بالانهيار».

دي لا متري

(١٧٠٩ – ١٧٥١)

فيلسوفٌ فرنسيٌّ يؤمن بالمذهب المادّي، والمادّي هو من ينكر كل شيء بخلاف المادّة، كما لا يؤمن بالإله، ولا بالروح، ولا الآخرة.

لم يكتفِ «لا متري» بإلحاده، بل سعى لنشره.

وممَّا قاله: «لا يستند الإيمان بالإله على أيِّ أساس، ولا يفيد بأيِّ شيءٍ.»! و»الهدف الوحيد للحياة هو الملذَّات المادّيّة»، و» يجب نشر الإلحاد في كل مكان من أجل السعادة»!

كان أستاذًا، لكن أستاذًا في الكفر.

واصل «بارون دي هولباخ» دفاعه بإصرار عن أفكار «لا متري». بعد ذلك ظهر رجل يُدْعى « هلفتيوس» قائلًا: « أنتم على حقٍّ أيها الأساتذة، أنا معكم».

هؤلاء هم ماديّو القرن الثامن عشر الفرنسيون. ماذا حدث بعد ذلك؟ ماتوا جميعًا.

جان جاك روسو

(١٧١٢ – ١٧٧٨)

مفكرٌ، وكاتبٌ فرنسيٌّ. من ممهِّدي الطريق أمام قيام الثورة الفرنسية الكبرى.

ماتت أمه بعد ولادته مباشرة، وتخلَّى أبوه عنه. فعجز روسو عن تلقّي تعليم جيّد.

خرج في رحلات، وتحوَّل من البروتستانتية إلى الكاثوليكية، و زاول العديد من المهن، لكنه فشل فيها جميعًا!

عمل خادمًا في بيوت الأغنياء، فأقام علاقاتٍ مخادعة مع سيداته، حيث سرق أموال إحداهن، وألقى التهمة على الخادِمَيْن الآخريْن. أرأيت كم كان جبانًا؟!

بدأ في تلك الأثناء كتابة المقالات، وقد حظيت رواياته باهتمام كبير. وقد مُنِحَ جائزةً لعمله « خطاب حول العلوم والفنون». تبنَّاه مثقفو عصره من الفرنسيين واهتموا به، فعمل مع كتَّاب الموسوعات، لكنه انفصل عنهم لاحقًا.

كان يسيء معاملة النساء، ويعيش مع امرأة تعمل في غسل الملابس في أحد الفنادق. وصار أبًا لخمسة أطفال أرسلهم جميعًا إلى دار الرعاية!» فلنضف إلى صفاته عدم القدرة على تحمل مسؤولية بناء أسرة صالحة»، وجلس ليؤلف بعدها كتابًا حول تربية الأطفال! كان يعتقد أنه من الضروري تعليم الأطفال

في بيئة طبيعية، وهو ما سرده في روايته «إميل»، كان ينبغي عليه أن يقدّم النصح لنفسه أوّلًا!

مات بالشلل مخلفًا وراءه إرثًا من مقولاتٍ، وحكمٍ تملأ كتبًا، وممَّا قاله:

«من يعيش أكثر ليس من يحيا لسنين أطول، بل من يفهم معنى الحياة أفضل»!

إيمانويل كانت

(١٧٢٤ - ١٨٠٤)

فيلسوفٌ ألمانيٌّ يُعَدُّ أحد الركائز الأساسية في تاريخ الفلسفة. من الفلاسفة القلائل الذين كانت لديهم فلسفة منهجية، فكان أستاذَ التيار النقديّ.

ظهر قبله نوعان من المفكرين: الماديّون والمثاليون، فكلُّ فريقٍ على قناعةٍ بما يقول رافضًا للآخر. ليشعر المرء بحاجةٍ لطرح سؤال مفاده: «أليس هناك طريقٌ وسطٌ بين هذين يا صديقي؟»، فقال (كانت) «بلى»، فقالوا له: «أرنا كيف هو»، وبيّنه لهم.

بدأ عمله منتقدًا مسألة طريقة اكتساب المعرفة، فقال باختصار «للحصول على المعرفة الحواس يجب استخدام الإدراك، والعقل ضروري. نعم، فأنت تحس أوَّلًا، ثم تدرك، وبعدها تفكر، فهذه جميعًا قناة المعرفة، فلماذا تأخذون واحدًا، وتتركون الآخرين؟ فلا أحدهم دون الآخرين».

حاول إثبات أنَّ العقلَ وحده لا يكفي في كتابه: « نقد العقل المجرّد».

وجه (كانت) ضربةً موجعةً للمذهب العقلاني الذي يدَّعي أن العقل قادرٌ على معرفة كل ما هو مطلق؛ لهذا سُمِّيَتْ فلسفتُهُ بـ»الفلسفة النقدية».

سألوه: « هل يمكن للإنسان معرفة الغيبيات عن طريق العقل؟»، فأجابهم: «لا، يمكن معرفة الظواهر، لكن لا يمكن معرفة الأسماء».

والظواهر هي ظهور الكيانات أمامنا في مكانٍ، وزمانٍ ما. أمَّا الأسماء، فهي الكائنات التي لها كيان خاص ولا تتشكَّل حسب المادة، مثل: الإله، والملائكة والأرواح، وما إلى ذلك.

«حسنًا، فكيف يمكنني إيجاد الإله؟ هل بإمكاني التواصل معه، والحصول على معلومات؟»

«نعم، يمكنك ذلك بوجدانك، كما يمكنك الوصول إلى معرفة أكثر سُمُوًّا عن طريق تزكية النفس، وتطهيرها من الشهوات، وعيش حياة فاضلة، والقيام بالأعمال الصالحة».

كانت هذه الفكرة هي نقطة التقائه مع الغزالي.

لم يتزوج (كانت) أبدًا، وهو يَعُدُّ الحياة الزوجية عائقًا أمام أعماله الفلسفية. فعاش حياته أعزبَ في شارع في أطراف المدينة.

كانت كل دقيقة من يومه مخططًا لها؛ يستيقظ في ساعة محددة، يشرب قهوته في وقت معين، يعطي دروسه في ساعة محددة، يخرج للتجوال في وقت محدد. لقد كان إنسانًا دقيقًا لدرجة أنه عندما كان يخرج في نزهة كان الجميع يضبط ساعته على الثالثة والنصف، وكانت جولته عبارة عن الطواف ثماني مرات في طريق به أشجار الزيزفون!

يوهان جوتليب فيشته

(١٧٦٢ – ١٨١٤)

نشأ الألماني فيشته تحت رعاية أحد قساوسة قرية ألمانية إلى أن أصبح أستاذًا في الفلسفة. تبنّى فلسفة – كانت، وتعد– من أهمّ ركائز تيار المثالية الألماني.

كان رجلًا ديمقراطيًّا، طُرِدَ من الجامعة بعدما أخبروه بقولهم: « أنت شخص ملحد لا يعرف الرب، عليك اللعنة!» دفع ثمن تعبيره عن أفكاره.

لم يكن فيشته ملحدًا، بل كان دهريًّا مثاليًّا، لكنه لم يتطرّف بفكره ليقول مثلما قال بيركيلي « إنّ العالم الخارجي هو نتاجٌ لفكري».

كان يُعَدُّ العقل، والحواس عاجزة، وكان يقول: « لا يستطيع الإنسان إدراك الحقيقة سوى بالحدس، وما الحواسّ إلّا أدواتٌ قاصرة. ولاكتساب المعرفة يحتاج الإنسان إلى حدس مثقف»؛ ولهذا كانت الحقيقة الوحيدة بالنسبة لي هي «الأنا»، أي الفاعل.

لديه بعض الآراء التي يمكن تلخيصها في العبارة التالية: « الإرادة هي النشاط الذي يحدِّد ملامحه بنفسه، وهي محرّك كلّ شيء، وما عداها تعتبر أشياء سلبية».

وكان ممّا قال: « عليك الاجتهاد لتكون حرًّا»، وكأنه كان يقول: « الحرية لا تعطى، بل تؤخذ».

ومن العبارات الأخرى البارزة التي قالها: « أن تكون حُرًّا شيء، والتحرر شيءٌ آخرُ»، و« يُعَدُّ الدين » على نحو ما «اعتراف الإنسان بعجزه».

يُعَدُّ ممَّن نشروا بذور الفكر القومي، وهو الفكر الذي تطوّر سريعًا بعد وفاته.

الحنين:

سُئِلَ حكيم بينما كان على فراش الموت: «بماذا تشعر؟»

فردَّ بجوابٍ مليءٍ بالحزن: « أكتوي بنار الحنين».

« الحنين إلى ماذا؟ ما الذي أردت حدوثه، ولم يحدث؟».

فردَّ قائلًا: « بحثت طيلة حياتي عن مرآةٍ لنفسي، عن قلب مقابل قلبي، وها أنا ذاهبٌ دون أن أجد شيئًا».

فريدريك شيلنج

(١٧٧٥ – ١٨٥٤)

اسمه بالكامل « فريدريك ويلهالم جوزيف فون شيلنج»، وهو ألماني درس الفلسفة. عمل أستاذًا بجامعة «ينا الألمانية» العريقة. يُعَدُّ من فلاسفة المثالية، وهو أحد مؤسسي المثالية الموضوعية.

تأثَّر بفكر « كانت» بشكل كبير، وهو بمثابة خليفة « فيشته»، لكنه مختلف عنه في بعض التفسيرات. لا يرى الطبيعة بوصفها كيانًا ميكانيكيًّا يعارض الإرادة، فيقول « هناك تقارب بين الإنسان والطبيعة، ولهذا يستطيع الإنسان فهمها».

يعد شيلنج هو الفيلسوف الذي طرح الأفكار التي مهّدت الطريق أمام مثالية هيجل، حيث يقول: « إن أساس كلّ شيءٍ هو الفاعل المطلق»، ويحقق هذا الكيان المطلق نفسه في الكون من خلال تكامل يتقدّم من اللّاوعي إلى الوعي، ويرى هذا المفكر أن هناك طريقين للوصول إلى الكيان المطلق، ألا وهما الدين والفن، اتّجه شيلنج في آخر حياته إلى التصوّف، ولقد أثرت أفكاره في المثاليين، وكذلك بعض الوجوديين.

جورج فيلهلم فريدريش هيجل

(١٧٧٠ - ١٨٣١)

هو ألمانيٌّ درس علوم الدين، والفلسفة، وعمل أستاذًا للفلسفة. مات بالكوليرا. يُعَدّ من فلاسفة تيار المثالية، حيث تتمتع فلسفته بتنظيم كبير، أي أنه قال عبارات متوافقة مع بعضها البعض في كل المجالات.

طور هيجل طريقة التفكير الجدالية كثيرًا. وهو يُعَدُّ أن الجدل ليس طريقة تفكير وحسب، بل قانونًا كونيًّا أساسيًّا.

الروح كيانٌ مطلقٌ، والفكرة هي التي تدركها، لا يمكن لهذه الروح، أو الفكرة أن تبقى واحدة دائمًا، بل تتغيّر، وتتطوّر باستمرار.

يحمل كلُّ كائن داخله ما هو ضده. ويتولّد عن هذا التعارض أفكار مختلفة ومصطلحات جديدة، وأما الكيان المطلق، أي الروح، فيطوّر نفسه مرورًا بالمراحل نفسها.

يتبع الإله الطريقة نفسها عن طريق «إبطال نفسه». حيث تُعَدُّ الطبيعة كيانًا خارجيًّا، ويتحوّل الكيان المطلق إلى كياناتٍ جزئيّة، لتعيش حالة « الكيان الخارجي»، وتعزل نفسها، فهذه هي الطبيعة، أي أنها فكرة تجسد نفسها في صورة كائنات.

يحدّد كيان مطلق كلّ المخلوقات، وأما الوعي البشري يتخطَّى الكائنات الجزئية، ويتّجه نحو الكيان المطلق الذي يتحوّل داخل الوعي البشري إلى «كيان

يعرف نفسه»، فيتبع الوعي البشري هذه المسيرة إلى أن يعثر على ما هو مطلق، ويعكسه.

تمرُّ الروح البشرية بمراحل الشعور، والإدراك، والفهم ليتعرف نفسه بصفتها « أنا حرة»، وبهذه الطريقة تتحوّل إلى «الروح المطلقة».

وأما وسائل المعرفة، فهي الفن والدين. تعثر الروح على الروح المطلقة التي تحدِّد كلّ شيء من خلال الفلسفة، فتعرفها وتتعرف إليها.

تعتبر الروح المطلقة، أي الإله، هي اتحاد الأفكار غير المادية، وكل الكائنات القابلة للرؤية بالعين والإمساك باليد. ويؤمن هيجل بوحدة الوجود. فهو يرى أن الكون هو نفسه الإله الذي يراه «كامنًا» في الكون، وهو ما يشبه حينًا « نظرية الانبثاق»، وحينًا أخرى فكرة « وحدة الوجود».

لقد وضع هيجل تصوّرًا لكون من الأفكار خاصّ به. عباراته مختلطة وجافة، لكن ما باليد حيلة، فهو أحد أساتذة الفلسفة العظماء.

أرتور شوبنهاور

(١٧٧٨ - ١٨٦٠)

درس الألماني «شوبنهاور» الطب. انعزل عن العالم في سنوات شبابه، وتأثَّر بالفلسفة الهندية.

ممّا قاله: « تعتمد الفلسفة المعرفية على الفاعل، وليس هناك مفعول بلا فاعل».

إن العالم من تصميم الإنسان! وهو بلا معنى! أما الإنسان، فيُعَدُّ لعبة بيد الإرادة الكونية.

يعدُّ شوبنهاور فيلسوفًا متشائمًا. حيث يرى أن طلب شيء يُعَدُّ تألُّمًا، وبما أن الإنسان يريد دائمًا، فإن العالم مكان مؤلم بالنسبة له، ومن يطور نفسه يكون قد زاد من آلامه.

تعدُّ الحياة حربًا خاسرة، فماذا عسانا أن نفعل إذًا؟ ازهدوا في الدنيا، واتركوا كلّ شيءٍ بها.

شرح شوبنهاور الفكر الهندي من خلال لغته الفلسفية الخاصة، لكنه قال جملة من العبارات حول النساء: « تظل النساء أطفالًا طيلة حياتهنّ، تعتبر المرأة هي قصر نظر العقل، ولقد خلق الرجال ليكسبوا المال، وأما النساء فخُلِقْنَ لينفقوه»!

من المفيد إلقاء نظرة على حياته لفهم سبب تشاؤمه لهذا الحَدّ. كن جده قد أفلس، أما جِدّته فانتحرت، وكان أحد إخوته غبِيًّا، أما الآخر فكان مجنونًا، جعل والده أمنية أن يكون أرتور تاجرًا، لكنه عجز عن ذلك. لم يَرَ حُبًّا من والدته قط، فهو يتشاجر معها أينما اجتمع بها. وهذا ما يفسر عداءه القديم للمرأة، وكلامه عنها والحط من شأنها، وكان تدريسه في الجامعة نفسها مع أستاذ مشهور مثل هيجل سببًا آخرَ لشقائه.

لم يكن له عقيدة، ولا صديق، وكان صديقه الوحيد في سنواته شيخوخته كلبًا من نوع البطباط، فإذا لم يقدم لنا رجلٌ كهذا فلسفة متشائمة، فماذا عساه أن يفعل يا ترى؟

لكنه قال عكس ذلك؛ إذ قال: « ليس من الصحيح أبدًا أن يحاول الفيلسوف أن يبني علاقة بين حياته، وشخصيته، وأعماله».

أوليس هناك علاقة حقًّا بين شخصيته، وأعماله؟

جون ستيوارت مل

(١٨٠٦ – ١٨٧٣)

فيلسوفٌ إنجليزيٌّ لم تكن له فلسفة منهجية، حاول تطوير الطريقة الاستقرائية، وعندما سأل: « كيف يمكن اكتساب المعرفة؟»، أجاب «بالحواسّ بكل تأكيد!»

يقول: « كل ما هو موجود عبارة عمّا نستطيع رؤيته». سألوه « إذًا، ما الجيّد، وما السَّيِّئ؟»، فأجاب: « ما يمنحك السعادة جيّد، وما يصيبك بالتعاسة سيّئ».

كان الفكر السياسي الذي تبنَّاه هو الاشتراكية، وهي الأيدولوجية التي تريد حصر كلِّ آليات الإنتاج بيد الدولة، وأما الشيوعية، فهي المرحلة المتقدمة من الاشتراكية التي عجزت عن مجاراة تقدّم الزمان، وعندما تلقّت بعض الصدمات تحولت إلى « الديمقراطية الاجتماعية».

هناك أيضًا: « الاشتراكية القومية»، وقد استخدمها الزعيم النازي هتلر «بنجاح» في وقت من الأوقات، وهي وجهة نظر، أو طريقة إدارة مَبْنِيّة في الأساس على القيادة العليا، والقومية والاشتراكية.

أوجست كونت

(١٧٩٨ - ١٨٥٧)

كان معلم رياضيات فرنسِيًّا، وضع أساس فكره تحت مسمَّى الفلسفة الوضعية.

يرى كونت أن الإنسانية مرَّت بمراحلَ ثلاثٍ: الدين، الميتافيزيقا، الفكر الوضعي، وهذا الأخير يُعَدُّ المرحلة الأخيرة.

يُعَدُّ الفكر الوضعي هو الفكر المبْنِي في الأساس على التجربة، والملاحظة والرافض لأفكار الدين، والميتافيزيقا بوصفها أفكار ما قبل اكتشاف العلوم. باختصار، فلسفة « لا أؤمن بما لا أراه».

حاول كونت اختزال كلّ العلوم في علوم الطبيعة. يقول: « لا يمكن اكتساب المعرفة سوى من خلال الحواسّ، وليس هناك أيّ طريق آخر. لا تصدقوا بما لا يمكن إثباته بالتجارب»، كان من الذين لا يصدقون إلَّا ما يرونه بأعينهم.

كان ملحدًا لا يؤمن بوجود إله، فقد كان ينكر الدين بالكلية، لكنه لم يكن يستطيع أن يجعل الشخص منكرًا للدين، بل كان يصوغ دينًا اصطناعِيًّا. تعتبر «الإنسانية» هي إله هذا الدين، بل وحتى كان يصمم عبادات يومية!

كانت آخر سنوات حياته مؤلمة. كان يعمل سكرتيرًا لدى المفكر المادي «سانت سيمون»، وبعد أن خدم لديه لسبع سنين ساءت علاقتهما، ويبدو أن كونت شعر بنفسه وحيدًا بعد أن انفصل عن سيمون لدرجة أنه تزوَّج في

عجالة امرأة جاهلة، لكن سرعان ما ندم ندمًا شديدًا، ذلك أن زوجته أرهقته كثيرًا، فأصيب بعد فترة باكتئاب، ثم بجنون حتى انتحر، ولا يعرف أحد ما إذا كان لزوجته دورٌ في جنونه وانتحاره.

هربرت سبنسر

(١٨٢٠ - ١٩٠٣)

فيلسوفٌ إنجليزيٌّ تلقَّى في بداية حياته تعليمًا على يد والده. عمل في مجالات التدريس، والمقاولات، والصحافة، ولم تكن فلسفته من النوع المؤثر بشكل كبير.

كانت قصة تَبَنِّيه نظرية التطوّر، والنشوء مثيرة للدهشة. كان يحفر نفقًا، فوجد مجموعة من الحَفْرِيَّات في حُفْرة النفق، فبدأ يهتمّ بعلم الأحياء بتأثير هذا الكشف، ودرس نظرية التطوُّر، والنشوء إلى أن تبنَّاها.

ويبدو أنه فكَّر بينه، وبين نفسه قائلًا: « لا يتّسع علم الأحياء لأفكاري، عليّ الانفتاح على آفاق جديدة»، إلى أن بدأ تطبيق نظريته كذلك في مجال علم النفس والاجتماع.

أرى أنه من المفيد أن نتعرف عن قرب على مصطلح «التطور»؛ إذ إنه التغير الذي يحدث للوصول إلى مرحلة النضج بشكل تدريجي دون أن تكون له مظاهر تذكر. وأما نظرية التطور، فهو اسم الفكر الفلسفي الذي اتخذ من التطور أساسًا له. وتنقسم هذه النظرية إلى فرعين، نظرية داروين ونظرية برجسون. ففي نظرية الأول، التطور يحدث من تلقاء نفسه نتيجة المصادفات. وأما في نظرية الثانية، فإن الإله يدير عملية التطوَّر وفق خطة ما وفي الواقع، فإن من الأصحّ أن نطلق على هذه النظرية اسم «التكامل» بدلًا من «التطوُّر».

كارل ماركس

(١٨١٨ - ١٨٨٣)

فيلسوف من أصولٍ يهودية. درس في الجامعات الألمانية، فعل كلّ شيء في حياته برفقة صديقه « إنجلز»؛ إذ كانا كالتوءم السيامي، وكانت أفكارهما متوازية.

كان ماركس يدافع عن المادِّيَّة الجدَلِيّة، وكان هيجل هو الذي نقل الطريقة الجدلية إلى مراحل متقدمة، وأما ماركس فقد طبَّقَ هذه الطريقة على المجال المادي، ليصفَ هذا بوصف «التعديل».

كان ممّا قال: « تاريخ المجتمعات هو تاريخ الصراعات الطبقية». كان مادِّيًّا قلبًا وقالبًا، وكان منكرًا لأفكار الإيمان مثل الإله، والروح والآخرة. كان يقول: « الدين هو أفيون الشعوب». وكان برونو باور هو أول من قال هذه العبارة، لكنها نُسِبَتْ إلى ماركس عندما أصبح أكثرَ شهرةً.

لم يقل ماركس شيئًا جديدًا في مجال الفلسفة، حسنًا، ما سبب شهرته يا ترى؟

جاءت شهرة ماركس من تناوله الفكر مع الفعل، وكان المفكرون الإغريق القدامى يطلقون عليه اسم: « التطبيق العملي»، لم يكتفِ ماركس بالدفاع عن أفكاره المثالية، بل حاول كذلك تطبيقها.

ممَّا قاله ماركس: « لقد اكتفى الفلاسفة بتفسير العالم، بيد أن الأصل هو تغييره»، كما فحص مصطلح «النفور»، وألَّف أعمالًا في المسائل الاجتماعية والاقتصادية، وكان كتابه « رأس المال» قد اكتسب شهرة كبيرة، وأثر في الجماهير في القرن العشرين، لكنه فقد سمعته بمرور الزمن. أدْخِلَ عليه الكثير من التحديثات من جانب مفكرين ماركسيين مثل أدورنو وهوركهايمر وبنيامين وماركوزه وهابرماس وجرامشي وألتوسير، غير أن هذا لم ينقذه من النسيان.

ثمرة الصبر:

كان ماركس يريد الزواج بفتاة ألمانية تدعى جيني، فأرسل أحدَ أقاربه ليطلبها، لكنَّ أهلها رفضوا، فقال والدها « ليس لَدَيّ بنات لأزوِّجها ليهودي!»

لكن، بالرغم من ذلك، ماركس لم يستسلم حتى وصل إلى مراده بعد ٧ سنين من الانتظار.

Telegram @t_pdf

تشارلز داروين

(١٨٠٩ - ١٨٨٢)

داروين هو مؤرِّخُ طبيعةٍ إنجليزي. كان والده طبيبًا، وأما هو فقد درس الطب واللَّاهوت. بدأ دراسة الكائنات، وهو مَنْ طرح نظرية النشوء والتطور التي تنصُّ على أن الأنواع نشأت من تلقاء نفسها نتيجة عملية التطور، وإن وضعها اليوم هو نتيجة عملية انتقاء طبيعية. وأما الإنسان، فقد ظهر نتيجة تطوّر نوع القردة، وما إلى ذلك.

كان داروين يقول هذا الكلام استنادًا لملاحظاته التي رصدها على جزر جالاباجوس. وإبّان حياته كانت الأبحاث العلمية لا تزال في مرحلة متخلفة، ولم يكونوا يعرفون شيئًا عن الجينات. وكان داروين يقول: « الخلية هي فقاعة مليئة بالهُلام».

كان يقول عبارات أخرى منها: « إن الحياة معركة»، فالقانون الأساسي هو أن القويَّ يقضي على الضعيف، فالحقُّ مع القوي، فمن تكفي قوته للنيل من الآخرين فإنه على حق»!

لقد أحبَّ الطغاة، والمستبدون هذه الفكرة كثيرًا، ذلك أن ذلك كان قانونَ الذِّئْبِ الذي يشرّع أكل الحَمَل، كما كانت أفكار داروين قد شجَّعت على ظهور فكرة « التطوّر الاجتماعي».

ما دام قانون الحرب هو السائد على وجه البسيطة، وما دام القوي قادرًا على القضاء على الضعيف، وليس هناك شيءٌ يمكن استغرابه حول هذا الأمر؛ فهذا يعني أن المجتمعات القوية كانت قادرة على تدمير المجتمعات الضعيفة.

لقد صَبَّتْ هذه النظرية كذلك في مصلحة الماديين من الفلاسفة الذين أصبح بإمكانهم الدفاع عن نظرية الوجود التلقائية بطريقة «علمية»، هؤلاء الذين يقولون بنشأة الكون عن طريق الصدفة البحتة، وهذا سبب بقائها على ساحة النقاش، بالرغم من كونها نظرية غير مثبتة تعرّضت للنقد اللّاذع من قبل العلماء.

ويليام جيمس

(١٨٤٢ – ١٩١٠)

يُعَدُّ الأمريكي «جيمس» هو مؤسِّس تيار «الفلسفة البراغماتية»، ولنسأله عن أساس فلسفته، ولننظر ماذا سيقول:

– « ما هو الصحيح من وجهة نظرك؟».

– « ما يفيدنا.».

– « كيف نفهم صحة فكرة ما؟».

– « تطبقها، فإذا أفادتك، فهي صحيحة.».

– « ما وسيلة المعرفة؟ كيف لي أن أعرفها؟».

– « الملاحظة والتجربة، لا تثق أبدًا بشيء بخلاف حواسّك».

– « هل يمكن اكتساب معرفة ميتافيزيقية؟».

– « لا، لا تستطيع فعل ذلك، إننا في هذا الكون مثل القطة الموجودة في مكتبة الكتب. لا تُضِعِ الوقت في ذلك، انظر إلى الحياة، وابحث عمَّا هو مفيد للإنسان».

– « هل نتخلَّى تمامًا عن الإيمان؟».

– « لا، إذا كان الإيمان يفيدكم، فيمكنكم الاستمرار به، والشعور بما تؤمنون به.».

يا له من رجل عملي!

فريدريك نيتشه

(١٨٤٤ - ١٩٠٠)

«نيتشه» هو مفكرٌ ألمانِيٌّ، وأستاذٌ للُّغة اليونانية. اضطر للعيش طيلة حياته متجنِّبًا النساءَ؛ بسبب إصابته بمرض الزهري. كان من بين الذين تكلموا كثيرًا بالسوء في حقِّ النساء. وفي نهاية حياته أصيب بالاكتئاب، والجنون.

وكان ممَّا قاله، وأثار ضجة حوله: « لقد مات الإله»! كان يؤمن بنظرية النشوء والتطوّر التي اخترعها داورن اليهودي. وهو يُعَدُّ الحياة معركة. كما يدافع عن فكرة: «الحق مع القوي»، وتعتبر فلسفته «فلسفة حياتية». لديه أفكار «خارقة»، حيث كان يقول:

« تخطُّوا حاجزَ أنفسكم! لقد أصبحتم بشرًا في بادئ الأمر، هيَّا كونوا الآن خارقين!».

- « وكيف نستطيع ذلك؟».

- « تفوَّقوا على حاجز الزمان والمكان!».

إنها نصيحة مخصَّصة للطغاة، وهل يسكت هتلر؟ بل ظهر على الساحة وهو يقول: « يا لك من مفكر عظيم!»؛ إذ وجد لنفسه فلسفة تتماشى مع رغباته. وماذا يفعل الشخص الخارق؟ يقتل الآخرين!

لقد وجد هتلر الطاغية الديكتاتور بغيته في نيتشه، حيث ضحك على الشعب الألماني، وغذَّى فيه فكرة التفوّق الآري على جميع العناصر في هذا

العالم، وبنى جيشًا أشاع الدمار والقتل، وخلف وراءه خمسة وخمسين مليون قتيلٍ؛ بسبب إيمانه بهذا الفيلسوف الألماني الذي كان بمثابة أيقونة له!

لا شكَّ في أن نيتشه قال عباراتٍ أخرى. وكان ممَّا قاله على سبيل المثال: «الكون سخيف»، وكان هذا كفيلًا بإشاعة العبثية والاستهتار، لكن يجب ألَّا يكون الإنسان متشائمًا؛ إذ يمكنكم التغلب على ذلك بإرادتكم.

طوّر نيتشه فكرة « العودة اللَّانهائية» التي وضعها فيثاغورث. «الحياة هي تكرار لا نهاية له؛ إذ شهد الكون الآلاف من الحيوات التي ولدت من ذراتكم، وسيشهد كذلك الآلاف منها مستقبلًا. إذًا، فلا معنى للخوف من الموت.»، وما إلى ذلك.

محاولة بائسة لتسلية النفس!

يستخدم « نيتشه» لغة شعرية في كتاباته. كما أن أسلوبه متفاخر، فهو يزأر كالأسد، لكنّه زئيرٌ خاوٍ، كالطفل الذي يسير، وهو يطلق الصفير لخوفه من الظلام.

هنري برجسون

(١٨٥٩ – ١٩٤١)

فيلسوفٌ فرنسِيٌّ من أبٍ يهودِيٍّ، وأمٍّ أيرلندية، كان حادَّ الذكاء، وأبرز الفلاسفة في القرن العشرين.

عندما سُئِلَ: « ما طريقة اكتساب المعرفة؟»، أجاب: « الحدس. لا يمكن معرفة الأصل الحقيقي للمخلوقات سوى بالحدس الذي يُعَدُّ قناة معرفة بلا وسيط».

يعارض برجسون الفلسفة المادية، حيث يُعَدُّ أن فكرة التطوُّر فكرة خاطئة. لديه مفهوم خاص به عن التطوُّر يطلق عليه مصطلح: «التطوّر الخلّاق». ويرى هذا المفهوم أنَّ كلّ شيءٍ في الكون يتغيَّر في سبيل الوصول إلى الكمال. بيد أنَّ هذا التغيير لا يحدث من تلقاء نفسه بالطرق الميكانيكية نتيجة الانتقاء الطبيعي، فتوجد «طفرة حياتية» في كل الكائنات، ويُعَدُّ الإله هو مصدرها.

يسوق « برجسون» كذلك أفكارًا مثيرة حول مفهوم الزمن. فهو يميِّز بين زمن الوعي، والزمن الخارجي، فما هو موجود في الوعي هو «الفترة». فوعينا عبارة عن ذاكرة تخزِّن الماضي في الحاضر، وهو ما يجعلنا على ما نحن عليه.

إدموند هوسرل

(١٨٥٩ – ١٩٣٩)

هو رياضيٌّ، وبروفيسور ألماني من أصول يهودية، ويُعَدّ هوسرل هو مؤسس «تيار فلسفة الظواهر»، والظاهرة تعني ما يظهر في المكان والزمان، فقد كان الناس يعيشون في الأزمنة «المعاصرة»، وكانت العلوم تتقدم لتنتزعَ المسائل من بين يَدَيِ الفلسفة. ولقد بحث هوسرل عن أسس جديدة للفلسفة.

وأجاب عن سؤال أرَّقه كثيرًا: ماذا على الفلسفة فعله؟

توصل «هوسرل» إلى أن الفلسفة ينبغي عليها الاهتمام بالجوهر، وأنه يجب أن يكون هناك «علم» للجواهر التي تنعكس من الداخل، والخارج على الوعي.

يجب معالجةُ المعلومات المكتسبة بالتجارب، وحملها على الجوهر، فإذا درست الفلسفة جواهر الأشياء، أي ماهيتها، يصبح لدينا «علم العلوم». إلى آخره.

من جُمَلِهِ الشهيرة «الوضع بين قوسين»، وهو ما يعني: «عدم الوصول إلى حكم ما « خلال عملية التفكير، أي تأجيل إصدار حكم. التخلّي عن كل المعلومات المكتسبة بالحواسّ، بل وحتى عن وجود الكون الخارجي في سبيل الوصول إلى الوَعْيِ الصَّافي، والجواهر المجرَّبة دون وسيط.

سورين كيركجور

(١٨١٣ – ١٨٥٥)

هو فيلسوفٌ دانماركي، وأحد مؤسِّسي الفلسفة الوجودية، وهو لا يعترف سوى بأستاذين: النبي عيسى وسقراط.

يعارض عقيدة الكنيسة، وممَّا قاله: « يجب الوصول للحقيقة من خلال التجارب الشخصية»، وهو ما يُعَدُّ طريقة للتجربة الصوفية يحمل كلّ فرد المسؤولية.

يميّز بين الحياة الجمالية، والأخلاقية، والدينية، حيث يقول: « إن وظيفة الإنسان الحقيقية هي أن يعيش الدين، وإن لم يفعل ذلك، فلن ينجو من حالات الاكتئاب، يجب أن يكون الفن والأخلاق وسيلتين للحياة الدينية.».

يحدد الإنسان نفسه من خلال أفكاره، ومعتقداته، وتفضيلاته، وأفعاله. الشكل أوّلًا، ثم بعد ذلك المضمون. يجب أن يكون غرض الفلسفة هو الوصول إلى سبب وجود الإنسان في الكون، كما يجب أن تبحث عن أجوبة لأسئلة جوهرية من قبيل: «لماذا الإنسان موجود؟ إزاء من يتحمل المسؤولية؟ إلى أين سيذهب؟»

يُعَدُّ «كيركجور» التيارات الفلسفية المستندة إلى الأفكار المجرَّدة غير كافية، ويصفها بـ»الكلام التافه»، ويوجِّه انتقاداته للمُنَظّرين أمثال هيجل، ولا يتورَّع عن استخدام لغةٍ شديدةِ اللهجة للتعبير عن أفكاره في هذا الصَّدَد: «يكتفي

المثقف المجرّد بملاحظة العالم فقط من خلال طريقة بعيدة وموضوعية، فلا يشترك في هذا العالم أبدًا. يتصرف وكأنّ التاريخ قد انتهى، ولا يفكر في العالم بشكلٍ مادّيٍّ محسوسٍ، بل بشكل مجرَّد».

سيجموند فرويد

(١٨٥٦ – ١٩٣٩)

هو طبيب نفسي أسترالي من أصول يهودية. يُعَدُّ مؤسِّسَ علم التحليل النفسي، وهي إحدى الطرق العلاجية التي تقوم على فكرة البحث في الصراعات، والدوافع الكامنة في العقل الباطن، ونقلها إلى العقل الواعي لحَلِّ المشاكل الروحية. مسألة: «هيّا احكِ لي عن طفولتك».

كان فرويد ينيم مرضاه مغناطيسِيًّا، ويجعلهم يتكلمون، وكان يولي اهتمامًا كبيرًا بالأحلام، وكان يحاول فهم المشاكل التي لا تظهر في العقل الواعي عن طريق الاستماع للأحلام.

يرى فرويد أن المشاكل النفسية هي نتيجة المشاعر المكبوتة والمستترة. وأما سبب الإيمان بالإله، فهو الشعور بالذنب بسبب الكبت، أي أن المسألة بسيطة إلى هذه الدرجة!

يحظى مصطلح «Libido» بمكانة كبيرة في نظرياته، أي الطاقة الجنسية، أو الشهوة، فحتى اهتمام الأطفال الرُّضَّع بأمهاتهم سببه هذه الشهوة. أولئك الأطفال الخونة!

كان طلبة فرويد يُعَدُّون نظريته هذه مثل القانون الذي يأخذونه على محمل الجد؛ ولهذا أصبحوا عاجزين عن النظر في وجوه أمهاتهم!

كانت النساء من بين المسائل التي درسها فرويد الذي قال: «بالرغم من دراستي لنفسية النساء منذ ٣٠ عامًا، فإنني لم أجد إجابة لهذا السؤال المهم: ماذا تريد النساء حقًّا؟».

ولقد اعترف فرويد بعجزه بشأن النساء، لكنه لم يتردد عن تقديم حكم مؤكد بحقِّ الرجال عندما قال:

« لا يوجد رجلٌ يكون صديقًا مقرّبًا إلى امرأة، إلّا وتكون بداخله رغبة في إقامة علاقة جنسية معها»!

تعرَّض فرويد للانتقاد من قِبَلِ العديد من العلماء، والأطباء النفسيين الذين عدُّوا طريقته، ونظريته ناقصة. وأما إحدى نقاط النقد الموجَّهة إليه، فهي إطلاقه أحكامًا عامة على كلّ البشر انطلاقًا من كَوْنِ بعض الأشخاص المحدودين الذين يعانون من المشاكل.

روبندرونات طاغور

(١٨٦١ – ١٩٤١)

كان حكيمًا، ورسامًا، وموسيقيًّا، وشاعرًا، وكاتبًا هندِيًّا تربّى في بيئة مثقفة. درس القانون في بريطانيا، واهتم بالأدب خلال سنوات دراسته، وألف المسرحيات، والروايات، والقصص، كما قال الشعر الذي حظي باهتمامٍ وإعجابٍ كبيرين.

عندما عاد طاغور إلى وطنه أنشأ مدرسة تحمل اسمه، وحاول نشر الفكر الهندي، كما خرج في رحلات استغرقت وقتًا طويلًا. تكلم في مؤلفاته عن حبِّ الإنسان، واحترامه والرحمة به.

بدأت أعماله المليئة بالمشاعر تُتَداوَلُ بين الناس، وحصل على جائزة نوبل في الأدب، لكنه رفض لقب «Sir» الذي قرر الإنجليز منحه إيّاه؛ إذ كانت الهند مستعمرة بريطانية آنذاك. كان غاندي يخوض كفاحًا بالطرق السياسية، أما طاغور، فقد تبنَّى أسلوبَ غاندي، وواصل كفاحه على طريقته الخاصة. ترك لنا أعمالًا مميّزة قبل وفاته، وتُرجمت قصائده إلى كلِّ اللغات الكبرى.

وهل يمكن للمرء أن يقرأ عباراته التالية ولا يتأثر بها؟

« تخشى النجوم أن يحسبها الناس خنافسَ مضيئةً».

« لا يمكنك عبور البحر بالوقوف بجواره، والنظر إلى الماء».

« إذا سكبت الدمع؛ لأنك فوَّتَّ رؤية الشمس، فلن تستطيع كذلك أن ترى النجوم».

مارتن هايدجر

(١٨٨٩ - ١٩٧٦)

هو فيلسوفٌ ألمانِيٌّ، وأستاذُهُ هو «هوسرل»، وأصبح لاحقًا أستاذًا جامعيًّا، وأطلق مع «هوسرل» مجلة فلسفية.

كان مقرَّبًا من النازيين، ورأس إحدى الجامعات في عهد هتلر، ثم أبعد من الجامعة بعد الحرب، وسُمِحَ له بالعودة للجامعة بعد أن ظلّ عاطلًا لسبع سنين.

تناولت فلسفة «هايدجر» قضية الوجود، وقد أقام علاقة بين الوجود واللغة، فاللغة بالنسبة للوجود كالبيت، وتُعَدُّ لغة الشعر هي الأصلح استخدامًا لفهم الحقيقة؛ ذلك أن لغة الشعر غير ثابتة مثل الحقيقة، تظهر، وتختفي فجأة.

كان «هايدجر» من الذين حاروا كثيرًا للوصول إلى جواب للسؤال عن ماهية الإنسان، وفي السطور التالية نقدِّم موجزًا للأفكار التي أراد شرحها بالمصطلحات الفلسفية التي وضعها بنفسه:

لا يوجد بين المخلوقات سوى الإنسان هو الذي يتساءل حول نفسه، ووجوده، ولا يكتفي الإنسان بإدراك كيانِ وجوده، بل إنه يفصح كذلك عن وجود كلِّ المخلوقات الأخرى بفضل عقله، ووعيه.

لقد قذف بالإنسان إلى هذا الكون؛ ولهذا فإنه يشعر بالقلق الذي يُعَدُّ أهمّ سبب له هو حرمان الإنسان من الأمان؛ لأنه يشعر بأنه تحت تهديد الفناء.

يُعَدّ الإنسان كائنًا متشكِّلًا بشكلٍ دائمًا، وهي وتيرة يكون الموت هو نهايتها، لكنه ينسى ذلك، أما الحالات النفسية التي تصيبه مثل القلق، والاكتئاب فتذكّره بهذه الحقيقة المرَّة. وفي هذه الحالة يتصرَّف الإنسان بإحدى الطريقتين، فإمَّا أن يختار أن يستفيقَ، أو يرجئَ التحذيرات. وإذا واجه مشكلته، فإنه يخطو نحو الحياة الحقيقية، وإذا أرجأها، فإنه يواصل العيش في حياة غير حقيقية.

يعدُّ الإنسان كائنًا فريدًا، لكن الأحداث اليومية تنسيه أصله هذا، وحينها يتحول إلى كائنٍ زائفٍ، فيعيش ويموت دون أن يعرف سبب وجوده.

يعيش الإنسان من أجل أن يموت، تلك هي النهاية الحتمية التي يواجهها هذا الكائن.

كان «هايدجر» إنسانًا في غاية التشاؤم؛ بسبب حرمانه من الإيمان، وأهمّ أعماله: «الوجود والزمان».

جابريل مارسيل

(١٨٨٩ – ١٩٧٣)

كان فيلسوفًا فرنسِيًّا، ووالده كاتبًا، لكنه اكتسب شهرةً أكبرَ من والده، درس الفلسفة، وعَمِلَ بمجال التدريس، وكتب مقالاتٍ نقديّةً، كما ألّف المسرحيات.

يُعَدُّ مارسيل من أنصار التيارِ الوجودِيّ من المسيحيين. وقد كانت له مواقف فلسفية قريبة من تيار الفيلسوف الدنماركي «كيركجور».

كان سارتر، الذي يُعَدُّ من الوجوديين الملحدين يرى أن الإيمان بالإله يحول دون حرية الإنسان، الأمر الذي عارضه مارسيل، حيث حاول المزج بين العقيدة المسيحية، والفكر الوجودي.

ممَّا قاله: « إنَّ الغاية الحقيقية لهذه الحياة هو أن يكون الإنسان على اتصال مخلص بالرب والناس»، غير أن هذا الاتصال كان لا بُدَّ أن يتحقق بطريقة تحافظ على فردية الإنسان؛ إذ تنصّ فلسفة مارسيل على أن الإنسان يفهم نفسه بقدر فهمه لكيانه الفردي.

كما ترى فلسفته أن ثَمَّة تعارضًا من حيث وجود الإنسان بين «الامتلاك» و»الوجود»، فالرغبة في امتلاك المتاع المادِّيّ يبعد المرء عن أن يكون «موجودًا».

لودفيج فيتجنشتاين

(١٨٨٩ – ١٩٥١)

هو مفكِّرٌ شهيرٌ في مجال فلسفة اللغة، وقد أرجع كلّ القضايا الفلسفية إلى مسألة اللغة. وكان يحلم بإيجاد لغة منطقية مميّزة قادرة على التعبير عن كلِّ شيءٍ، كما أنه ألَّفَ عملًا حمل عنوان «Tractatus»، وقال إنه حلّ به كل مشاكل الفلسفة.

كان يُعَدُّ أن تأليفه كتبًا أخرى يُعَدُّ أمرًا غير ضروري، لكنه تراجع عن قراره هذا لاحقًا، ونشر ملاحظاته الفلسفية، وبحسب الفترة الأولى من حياته، فإنَّ اللغة هي «صورة» العالم، وكما أنَّ الكائنات تتكون من الذرات، فإن اللغة تتألف من الكلمات، وكذلك يجب رسم الكيانات الموجودة حول العالم بواسطة اللغة.

لكن سرعان ما يصحح «فيتجنشتاين» وجهة نظره هذه، ويبدأ برؤية اللغة كـ«أداة»، ويعترف بأنها ظاهرة.

إنه يشبِّه استخدام اللغة بلَعِبِ لُعبة، ويرى أن التدريس الصحيح لاستخدام اللغة، والكشف عن الأخطاء اللغوية سيحلّ المشكلة. فمن وجهة نظره إن الكلمات التي يقولها الشخص لا تحمل في كلّ الحالات المعنى نفسه.

يجب تناول اللغة في إطارها الطبيعي؛ إذ إن تسليط النظر فقط إلى الكلمات يقودنا إلى نتائج خاطئة، فحالة قائل العبارة مهمّة بقدر عبارته.

إن مهمة الفلسفة يكمن في الكشف عن خبايا الأفكار بطريقة منطقية، فهي ليست تعاليمَ، بل نشاطًا. وإنه يجب على المفكرين أن يتجنَّبُوا طرحَ النظريات، ذلك أنها لا تفيد بشيءٍ سوى تضليل عقول الناس. لا يمكن معرفة المسائل الميتافيزيقية، فيجب على الفلسفة التخلّي عنها، والاهتمام بمواضيعها الخاصة، وما إلى ذلك.

جان بول سارتر

(١٩٠٥ - ١٩٨٠)

هو فيلسوفٌ فرنسِيٌّ تخرّج في مدرسة المعلمين، وعمل لفترة في تدريس الفلسفة. أصدر مجلة، وألّف الرواياتِ، والقصصَ، والمسرحياتِ، والتجاربَ الأدبية.

انضمَّ في وقتٍ من حياته إلى الحزب الاشتراكي، لكنه انفصل عنه بعد ذلك.

يُعَدُّ سارتر ملحدًا، وهو يرفض الدين بالكلية! إذ يرى أن الإيمان بالإله يحول دون حرية الفرد! كما يُعَدّ وجودِيًّا.

يرى سارتر أن الجوهر يأتي قبل الشكل لدى جميع الكائنات، وأما بالنسبة للإنسان، فإن الشكل يأتي قبل الجوهر، فالإنسان هو الذي يحدِّد جوهره.

يجب على الإنسان أن يكون حرًّا، وعليه أن يبذل جهدًا من أجل هذا، وأنه يستحق الحرية. ولا شك في أن سارتر ليس أول من طرح هذه الأفكار؛ إذ لم يفعل شيئًا سوى تكرار أفكار الفلاسفة الوجوديين أمثال: كيركجور وهايدجر.

إذًا، فما الذي جعل من سارتر مشهورًا لهذا الحَدّ؟ لا شك في أنه جانبه الأدبي! إذْ كان مشهورًا لدرجة أنه حصل على جائزة نوبل في الأدب، لكنه رفض هذه الجائزة. لقد كان رجلًا كتب، وتحدَّث دون توقف طيلة حياته الطويلة، لقد صار شهيرًا، ثم مات.

سيمون دي بوفوار

(١٩٠٨ - ١٩٨٦)

كانت فيلسوفة فرنسية وجودية، بينما والدها صُنِّفَ لا أدْرِيًّا، لكن والدتها حافظت على كاثوليكيتها المتشدِّدَة.

عاشت سيمون لفترة طويلة مع «سارتر» دون زواج! تركت مهنة التدريس، وكرَّستْ حياتها بالكامل للكتابة.

عملت بمجال الصحافة، كما ألَّفَتِ الرواياتِ، والقصص، والأعمال الأدبية التجريبية، وكافحت من أجل تحرُّر المرأة، وكان دفاعها عن قضايا مثل الزِّنَى، والإجهاض قد أدَّى إلى حالات واسعة من الجدل. واءمت بين الأفكار التي طرحها سارتر حول الوجودية، وبين مشاكل المرأة.

وضعت « دي بوفوار» أساس الحركة النسائية بمعناها العصري، وقد أحدث عملها الذي حمل عنوان: «الجنس الآخر» دَوِيًّا في الأوساط الثقافية، ومن عباراتها التي تستحقُّ الذِّكْر: « لا تنهار السنوات على كلِّ الأكتاف بالثقل نفسه».

ألبير كامو

(١٩١٣ - ١٩٦٠)

ترعرع الفيلسوف الفرنسي «كامو» في عائلة فقيرة، ومارس رياضة كرة القدم، لكنه مَرِضَ بينما كان يدرس الفلسفة، وتزوّج مرتين.

عمل « كامو» في المجال الصحفي، كما ألَّف الرواياتِ، والمسرحيات والتجاربَ الأدبيةَ. حصل على جائزة نوبل في الآداب، وفقد حياته في حادث مروري.

يُعَدُّ من المفكرين الوجوديين، ومع ذلك لا يَعُدّ نفسه فيلسوفًا، حيث يقول: «الفلسفة هي الشكل المعاصر للوقاحة»!

يرى أن الحياةَ سخيفةٌ، وأن الإنسان غريبٌ على هذا العالم، فهو مسكين. حسنًا، ماذا عليه أن يفعل؟ هل يجب أن ينتحرَ على سبيل المثال؟

لا، بل عليه أن يختارَ أن يعيش ببطولة بالرغم من كلِّ شيء، وعليه أن يتمرَّد؛ إذْ بما أنه أصبح موجودًا، فعليه أن يواصلَ وجوده حتى النهاية.

يصف نفسه بأنه « ملحد»، لكنه أخلاقي! يتمتع مصطلحا « العبث»، و»التغريب» بمكانة كبيرة في كتاباته الفلسفية.

لا شك في أنه ليس هناك ما يمكن أن نستغربَهُ في تعريف شخص لا يمتلك إيمانًا صحيحًا، ويُعَدُّ الموت فناءً للوجود بأنه «سخيف»، كان كامو يوصف

بأنه: « كاتبٌ ذو فكرٍ ينزف»، ونشعر في بعض كلماته بإيقاع قلبٍ جريحٍ يخفق في قلق: «أكبر حزنٍ في العالم ليس ألَّا يُحَبّ الإنسان، بل ألَّا يحِب».

«يعتقد الإنسان المعاصر أنه يجب إنقاذ الجسد أوَّلًا، وفي سبيل تحقيق هذا الأمر يرضى حتى بموت الروح لفترة، لكن هل يمكن للروح أن تموت لفترة من الوقت؟»!

بيرتراند راسل

(١٨٧٢ - ١٩٧٠)

هو عالمُ اجتماعٍ، ومنطقٍ، ورياضيٌّ إنجليزيّ ينحدر من عائلة نبيلة، لكن لا أحد يعلم ماذا يعني عائلة نبيلة. تزوج أربع مرات، وكان عندما تزوج زواجه الرابع عجوزًا في الثانية والثمانين.

عمل لفترة من حياته في المجال الدبلوماسي، وعارض سباق التسلح؛ ولهذا أُلْقِيَ به في السجن لستة أشهر؛ بسبب أفكاره المؤيّدة للسلام.

يُعَدُّ راسل لا أدْرِيًّا فيما يتعلَّق بالمعرفة، وممَّا قاله: « الحقيقة هي نفسها الأشياء المعروفة، وأمّا ما يعرفه الإنسان حول هذه الأشياء، فهي معرفة محتملة، وفيما يتعلق بالأشياء غير القابلة للملاحظة، فإنها لا تعتبر معرفة، لكن يمكن تصديقها».

يصف العلاقة بين العلم والفلسفة باختصار كالتالي:

«نُسِجَ العلمُ من نجاحات الفلسفة، وأما الفلسفة، فنُسِجَتْ من فشل العلم»!

يتناول الأسئلة الفلسفية من ناحية منطقية، ويتبنَّى الفكر الإيجابِيَّ المنطقي. ويُعَدُّ من مؤسِّسي الفلسفة التحليليَّة. وقد ردَّ على من قالوا: « التجربة ولا شيءَ غيرها» بقوله: « أنتم مُحِقُّون، لكن في الوقت نفسه المنطق، ولا شيء غيره».

يرى أنه لا يوجد علم فلسفة، وليس هناك شيء سوى استنتاجات. ويفند رأيه ذاك، فيردُّ على سؤال: « لماذا فشلت الفلسفة؟» بقوله:

« لأن الفلاسفة ينصبون أعينهم في الأعالي ويتعجّلون، في حين أن التواضع والصبر يساهمان في هذا العلم، مثل سائر العلوم الأخرى، في تحقيق تقدُّم مستمرٍّ، وقوِيٍّ».

Telegram @t_pdf

لوي ألتوسير

(١٩١٨ - ١٩٩٠)

فيلسوف فرنسي كان في وقت ما عضوًا بـ» المجموعة الشبابية للطلاب المسيحيين». شارك في الحرب، وبينما كان في الأسْر تحوَّل إلى الشيوعية بتأثيرٍ من الشيوعيين.

يعرف «ألتوسير» بكتاباته حول ماركس، ويُعَدُّ من منظِّري الماركسية، وأحد الأسماء التي حاولت تحديث هذ التيار الذي عفا عليه الزمن بمرور الوقت، وعندما سُئِلَ: «ما الفلسفة؟» ردَّ ردًّا غريبًا، فقال: «هي نظرية التطبيق المجرّد»!

كان المهم بالنسبة له هو التغيير. وقد وضع أفكاره استنادًا إلى عبارة قالها ماركس، حيث اتَّخذها معيارًا له: « لقد اكتفى الفلاسفة بتفسير العالم، لكن الأصل هو أن يغيروه». لقد أعاد ألتوسير تعريف الماركسية في عمله الذي حمل اسم: « العَوْد إلى ماركس»، بل إنه فعل ما يمكن وصفه بإعادة رسم ملامح التيار، وكأنه قد وجّه اللَّوْم لماركس نفسه.

يعرف ألتوسير بأنه: « ماركسي بنيوي»، ولكنه قام بعدَّة دراسات لكشف النقاب عن الفرق بين ماركس الشاب، وماركس العجوز، وقدَّم أفكارًا مختلفة بخطواتٍ متعدّدة أحيانًا إلى الأمام، وأحيانا إلى الوراء. لكن بعد ذلك أدخل تعديلاتٍ على موقفه هذا، وممَّا قاله: « لا تقترح الماركسية شيئًا جديدًا، بل تطوِّر تطبيقًا جديدًا للفلسفة»، وفي النهاية أصيب بالاكتئاب، وحاول حرق

مبنى الجامعة، كما قتل زوجته خنقًا! كتبوا بحقه تقريرًا يقرّ بأنه «مجنون»، فلم يدخل السجن. قضى بقية حياته في مستشفى المجانين إلى أن وافته المنية بمرض الالتهاب الرئوي.

جالينوس والمجنون

قال الحكيم والطبيب الشهير «جالينوس» ذات يوم لطلبته: « ائتوني بذلك العلاج لأتناوله»، فردَّ طلبته: « وكيف هذا يا أستاذ؟! ذلك العلاج للمجانين، وأنت شخص في منتهى الذكاء»، فأجابهم: «قابلت اليوم مجنونًا، فنظر أوّلًا إلى وجهي، ثم غمز بعينه، وسرعان ما انهال عليّ بالضرب، وما كان ليفعل ذلك لولا أنه لم يجد لَدَيّ شبهًا بيني وبينه، فليس هناك أحدٌ يزعج أحدًا إلَّا من على شاكلته، فإذا تشاجر شخصان، عليك أن تبحث بينهما عن نقطة مشتركة».

بديع الزمان سعيد النورسي

(١٨٧٨ - ١٩٦٠)

هو عالمٌ ومفكّرٌ، وحكيمٌ مسلمٌ، ومؤلف: «رسائل النور». ربّى نفسه بنفسه. حظي بتقدير العلماء في إسطنبول، ومدن الأناضول. وقد أطْلِقَ عليه لقب «بديع الزمان».

سعى النورسي طيلة حياته لنشر: «حقائق الإيمان». كان يتمتع بدرجة عالية من المعرفة في مجال العلم والفلسفة، حيث انتقد التيارات الفلسفية المادية وتحدَّى كلّ فلاسفتها.

قال في إحدى جلساته الدفاعية بالمحكمة: « لقد أسقطت أكبر فلاسفتهم من الملحدين إلى منزلة أقلّ من منزلة الحيوانات.».

انتقد النورسي كذلك المفكرين المسلمين الذين ألَّفُوا أعمالهم تأثُّرًا بالفلسفة الغربية، وكان قد قضى أكثر من نصف حياته في المنفى، وبين جدران السجون، كما حُظِرَتْ أعمالُهُ، لكنه واصل جلساته العلمية مع طلبته الذين أطلق عليهم: «طلبة النور» الذين ربَّى منهم الكثيرين. ولقد طوَّر أسلوبًا يستند إلى الكتاب؛ بدلًا من الأسلوب التقليديِّ المستند إلى الشخص.

خلّف مجموعة من الأعمال التي تخطَّتْ صفحاتها ٥ آلاف صفحة، وتُرْجِمَتْ كتبه إلى أكثر من 30 لغة.

يقسم النورسي الفلسفة إلى قسمين: الفلسفة المتصالحة مع الوحي، والفلسفة المتعارضة مع الوحي. وقد قصد النوع الثاني، وانتقدها نقدًا لاذعًا عندما قال: « لقد حادت الفلسفة عن طريق الحَقِّ».

يقول على سبيل المثال: « الفلسفة هي نظَّارة سوداء تظهر كل شيءٍ سيِّئًا ومرعبًا، أما الإيمان، فهو نظارة نورانية شفّافة برّاقة تظهر كلّ شيءٍ جميلًا وودودًا».

يولي النورسي اهتمامًا كبيرًا بمصطلح الحكمة، ويقول: « نعم، أقول الحكمة لأنَّ خيرها كثيرٌ، وشرُّها قليل».

كان مَنْطِقُهُ في أفكاره جملة: « أستاذي القرآن، وكتابي الحياة». يرى الكائنات على أنها كتاب، فكلُّ كائنٍ يُعَدّ مرآة للأسماء الإلهية، وبينما يقرأ الإنسان الآيات المكتوبة، فإن عليه أن يقرأ كذلك الآيات المرئية حوله في الكون، ذلك أنها تفسر، وتدعم بعضها بعضًا، و يُعَدّ هذا الرأي من أبرز الآراء التي تميز بها هذا المفكر.

كان يرى أن العلم يخدم الإيمان، عن طريق مساعدتنا على فهم ظواهر الأسماء الإلهية الموجودة في الكون، وعندما سأله طلبته: «عرّف لنا خالقنا»، أجاب: « إنَّ كلّ علم من العلوم التي تدرسونها يعرّف الخالق، فلا تستمعوا لأساتذتكم، بل استمعوا لهذه العلوم».

ألبرت أينشتاين

(١٨٧٩ – ١٩٥٥)

عالم فيزياء، ومفكّر ألماني من أصلٍ يهودِيٍّ. ويعدُّ واضع «نظرية النسبية». فاز بجائزة نوبل، كما وضع الأساس النظري للقنبلة النووية، وحصل بعد ذلك على الجنسية الأمريكية.

ألف كتابًا حمل عنوان: «حول الصهيونية»، وتضمن أفكاره حول إقامة دولة يهودية.

بُنِيَتْ الصهيونية على أساس فكرة إقامة دولة قوية لليهود، فهؤلاء هم الذين يُعَدُّون أنفسهم عرقًا مختارًا قرروا إقامة وطن قومي لهم على أراضي فلسطين، و قامت سياستهم على قمع جميع البشر.

قال أينشتاين ما يلي للتشديد على أهمية التطورات العلمية:

« لقد آمن الناس في مرحلة طفولة الفلسفة، بأنه يمكن الوصول إلى كلِّ شيءٍ يمكن معرفته عن طريق التفكير المجرَّد، وهو ما كان حلمًا زائفًا».

وكان يقول: « لقد جاءت المعارضة الشديدة للأفكار العظيمة دائمًا من أصحاب القدرات العقلية المتوسطة». كما أنّ له مقولةً شهيرةً تقول: « أن تشطر حكمًا مسبقًا، أصعب من أن تشطر الذرة».

جاك دريدا

(١٩٣٠ – ٢٠٠٤)

هو ناقدُ أدبٍ فرنسيٍّ، وقد وضع مع كلٍّ من «ميشال فوكو» و»جيل دولوز»، و»فيليكس جوتاري» أساس الفلسفة ما بعد البِنْيَوِيّة، حيث كان يعارض الفلسفة المرتكزة على العقل، كما ينتقد الحداثة نقدًا لاذعًا.

ينتمي دريدا إلى تقليد الفلسفة المستندة إلى اللغة، فهو يقول: « الأنا هي شكل لغوي، أو نتيجة للُّغة»، ويرى أن اللغة أداة متقلبة، وغامضة، كما أنها نظام، أو لعبة مؤشرات تستند إلى الاختلافات، والتناقضات، وليس هناك شيءٌ خارج اللغة، فكلُّ شيءٍ موجودٌ داخلَ النَّصِّ.

لا يؤمن دريدا بالتفسير، ذلك أنه يرى أنه لا يقود إلى الحقيقة، فالتفسير يولِّد التفسير، والتاريخ يولِّد التاريخ، والكتابة تولّد الكتابة.

إنه يعارض اتّخاذ « الميتافيزيقا» الغربية من المنطق مركزًا لها، فيقول: إن البلاغة تأتي قبل المنطق، وهي فنُّ إلقاءِ الكلام بحرفية عالية.

ينتقد هذا الفيلسوف ويهدم كل شيء تقريبًا يتعلّق بالفلسفة التقليدية، فهو أحد مفكِّري «حركة الهدم».

ممَّا قاله: « تعتبر الفلسفة هي العلاج المهدِّئ للألم الذهني الذي يصاب به المرء، وهو في أقرب نقطة إلى الجنون المحتمل». وكان هو نفسه من أكثر مَنِ استخدموا هذا العلاج.

روجيه جارودي

(١٩١٣ - ٢٠١٢)

هو فيلسوف فرنسي تلقَّى تعليمًا فلسفيًّا، ويُعَدّ من أهمّ مثقفي القرن العشرين. عمل أستاذًا في الجامعة الفرنسية، وألَّف أعمالًا في الفلسفة، والفنِّ وعلم الاجتماع، والأدب، وتُرْجِمَتْ كتبه إلى اللغات المهمَّة.

تعرَّض جارودي للضغط، والهجوم بسبب كتاب ألفه حول اليهود. كان من بين أبرز شخصيات الحزب الشيوعي. انشغل بالسياسة لفترة من حياته، كما كان نائبًا بالبرلمان، لكنْ سرعان ما حدث خلاف بينه، وبين حزبه بسبب بعض التناقضات الفكرية.

أصبحت الماركسية، التي كان قد عقد عليها آماله، غير مُرْضِيةٍ بالنسبة له. وعقب فترة طويلة من البحث، والتفكير اعتنق الإسلام، واختار اسم رجاء.

وهناك رواية حول سبب اتِّجاه هذا المفكر للبحث حول الدين الإسلامي:

حكم على مثقف فرنسي بالإعدام بتهمة تشكيل تنظيم سري، وكان سيُعْدم رميًا بالرصاص، غير أن الجنود الجزائريين الذين كانوا يخدمون بالجيش الفرنسي لم ينصاعوا لأمر قائدهم بإطلاق النار عليه. وهكذا أنقذت حياة الرجل، فسألوا الجنود المسلمين: « لم تكونوا تعرفون هذا الرجل، فلماذا لم تطلقوا النار عليه؟ ما السبب الذي جعلكم تدافعون عنه؟»، فأجاب الجنود المسلمون: « لا

يتوافق إطلاق النار على شخصٍ أعزلَ مع شرف العسكرية لدى المحارب المسلم!».

الخبرة

سألوا حكيمًا: « كيف تستطيع اتِّخاذ هذا القدر من القرارات الصائبة؟»، فقال « الخبرة!»، فسألوه: « كيف اكتسبت هذه الخبرة؟»، فأجاب: « من أخطائي!»، وأما القارئ الذي سيبدأ قراءة الكتاب من نهايته أقول:

«الكلمة تجعل الإنسان مسؤولًا!»